مذاهب الشرق الأوسط

قبل الإسلام وبعده

الجزء الثاني

العهد الإسلامي

لم يكن بين المسلمين في عهد النبي عليه السلام خلاف ظاهر. ورُوي عنهم في مدّة مرض النبي خلاف في أمور اجتهادية لا تتصل بمسائل العقائد، وذلك كاختلافهم عند قول النبي في مرض موته: ائتوني بقرطاس أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعدي" حتى قال عمر بأن النبي قد غلبه الوجع، حسبنا كتاب الله. وكثر اللغط في ذلك حتى قال النبي: قوموا عني لا ينبغي عندي التنازع.

وعن أبي هريرة قوله: خرج علينا رسول الله ونحن نتنازع في القدر فغضب حتى احمر وجهه ثم قال: "أبهذا أُمرتم أم بهذا أُرسلت إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر. عزمت عليكم ألاّ تنازعوا".

وعن أبي الدرداء وانس ابن مالك وأبي أُمامة قالوا: خرج إلينا رسول الله ونحن نتنازع في شيء من الدين فغضب غضبا شديدا لم يغضب مثله، ثم انتهرنا قائلا: يا أمّة محمد! لا تهيجوا على أنفسكم ثم قال: أبهذا أمرتكم أو ليس عن هذا نهيتكم؟ إنما هلك من كان قبلكم بهذا." ثم قال: "ذروا المراء لقلة خيره، ذروا المراء فإن نفعه قليل ويهيّج العداوة بين الإخوان، ذروا المراء فإن المراء لا تؤمن فتنته، ذروا المراء فإن المراء يورث الشك ويحبط العمل، ذروا المراء فإن المؤمن لا يماري، ذروا المراء فكفى بك إثما ألا تزال مماريا، ذروا المراء فإن المُماري لا أشفع له يوم القيامة، ذروا المراء فأنا زعيم بثلاثة أبيات في الجنة في وسطها ورياضها وأعلاها عن ترك المراء وهو صادق، ذروا المراء فإنه أول ما نهاني الله عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر، ذروا المراء فإن الشيطان قد يئس من أن يُعبد ولكن رضي بالتحريش وهو المراء في الدين، ذروا المراء فإن بني إسرائيل افترقوا على إحدى وسبعين فرقة، والنصارى على اثنين وسبعين فرقة وإن أمتي ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلهم على الضلالة إلا السواد الأعظم،" قالوا يا رسول الله ومن السواد الأعظم؟ قال: من كان على ما أنا عليه وأصحابي

ثم قال: إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا فطوبى للغرباء، قالوا: يا رسول الله، ومن الغرباء؟ قال : الذين يُصلحون إذا فسد الناس ولا يمارون في دين الله.[1]

وفي عهد الخلفاء الراشدين كان أمر العقائد على ما كان عليه في عهد النبي ولكن وقع الخلاف في أمور اجتهادية. اختلفوا في الإمامة فقال الأنصار: منا إمام ومنكم إمام. وطال بينهم الكلام في ذلك حتى صعد الصدّيق المنبر وروى لهم أن رسول الله قال: "الأئمة من قريش."

وحديث الخلافة له شأن عظيم في قيام الفرق الإسلامية وهو أكبر مظاهر الخلاف التي حدثت منذ وفاة النبي إلى ختام عهد أبي بكر وأيام عمر. ويقول الإمام أبو الحسن الأشعري المتوفى سنة 334 هجري في كتاب "مقالات الإسلاميين واختلافات المصلين"[2]:

"وأول ما حدث من الاختلاف بين المسلمين بعد نبيهم اختلافهم في الإمامة.

ويقول: وكان الاختلاف بعد الرسول في الإمامة ولم يحدث خلاف غيره في حياة أبي بكر وأيام عمر[3]

واختلف المسلمون في عهد أبي بكر في قتال مانعي الزكاة حتى أن عمر قال: "كيف نقاتلهم وقد قال عليه السلام: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم". فقال أبو بكر: "إلا بحقها من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.. ولو منعوني عقالا مما أدوه إلى النبي لقاتلتهم عليه".

واختلفوا في تنصيب أبي بكر قبل عمر للخلافة وفيما اتخذه عمر في أمر الخلافة من الشورى بين ستة من الصحابة.

واختلفوا في أمر عثمان، وأنكر قوم عليه أفعالا، واختلفوا في قتله فقال قائلون : "قتل ظلما وعدوانا". وقال غيرهم خلاف ذلك.

وبويع عليّ بن أبي طالب فاختلف الناس في أمره، فمن بين منكر لإمامته ومن قائل بإمامته وخلافته، ثم حدث الاختلاف في أمر طلحة والزبير وحربهما إياه، وفي قتال معاوية إياه في الوقائع المعروفة بوقعة الجمل ووقعة صفّين، وفي حال الحكمين، وظهر من ذلك خلاف الخوارج.

وفي كتاب التبصير في الدين للإمام أبو المظفّر طاهر بن محمد الاسـفرابيني المتوفى سنة 471 هجري يقول:

"ظهر في أيام المتأخرين من الصحابة خلاف القدرية بين 90-100 هجـري وكانوا يخوضون في القدر والاستطاعة كمعبد الجهني* وغيلان الدمشقي** وجعد بن درهم***

وكان عليهم من كان قد بقي من الصحابة: عبد الله بن عباس، وجـابر وأنـس وأبي هريرة وعقبة وأقرانهم، وكانوا يوصون إلى أخلافهم بألا يسلموا عليهم، ولا يعودوهم إن مرضوا، ولا يصلوا عليهم إذا ماتوا"[4]

بعد مقتل عثمان عرضت الخلافة على عليّ بن أبي طالب فقبلها بعـد تـردد. ولكنه لم يتمتع بها إذ أمضى حياته في حرب مخالفيه في البصرة والنهر وصـفّين إلى أن اغتاله أحد الخوارج في رمضان 40 هجري في حاضرة خلافتـه وهـي الكوفة[5]

كان الجمهور الإسلامي قد انضم إلى خصمه معاوية بن أبي سفيان. أما الكوفة فكانت مقرا لشيعة علي وكان منهم من يرى تفضيله حتى على مـن سـبقه مـن الخلفاء ومع هذا، لم ينل منهم ما يناسب عقيدتهم من الطاعة والإخلاص.

لما قتل رحمه الله رأت الشيعة أن يقوم في الخلافة مقامه ابنه الحـسن ولكنـه رأى بثاقب فكره أنه لا يحسن به الاعتماد عليهم ففضل الصلح مع معاوية وتنازل عن الخلافة وأقام بطيبة مدينة الرسول إلى أن توفي في 50 هجري.

ولما أدلى معاوية بالخلافة لابنه يزيد هبّت الفتنة في المدينة ومكة والكوفة.

أما المدينة فثارت تطلب عزل يزيد، وتولى الثورة فيها بعض أبناء الأنصار.

وأما مكة فلاذ بها عبد الله بن الزبير (ابن عمة الرسول) يطلب الخلافة لنفسه.

---

* في سنة 80 هجري صلب عبد الملك معبد الجهني في القدر

** كان مؤدبا لمروان بن محمد وابنه، وقتله هشام بن عبد الملك وصلبه بباب دمشق.

*** كان قبطيا قدريا، أخذه هشام بن عبد الملك وصلبه بباب دمشق.

وأما الكوفة فإن شيعتها أرسلت تطلب الحسين بن علي شقيق الحسن ليبـايعوه بالخلافة، ولقد قُمعت الثورات الثلاث.

لبى الحسين دعوتهم مع علمه بتاريخهم مع أخيه وأبيه وسار إلـيهم دون جنـد يركن إليه ولا مال يستعين به فقابلته جنود عبيد الله بن زياد عامل يزيد في العراق وكلها جنود عراقية مدربة فلم يكن له قِبل بمدافعتهم فقتل رحمه الله بكربلاء. ولـم تقم شيعة أبيه بشيء من المساعدة بل ظلوا في مساكنهم آمنين مطمئنين.

ظهر في تلك الأوقات رجل أراد الانتفاع من وراء هذه الفتن ليجعـل لنفـسه مركزا في البلاد العراقية، وهو المختار بن أبي عبيد الثقفي فذهب إلـى الكوفـة لابسا ثوب التشيّع مستعينا بما تضمره قلوب أهل الكوفة من المحبة لأهل البيـت، ناعيا على من قتل الحسين بن علي، وداعيا إلى الإمام المهدي محمد بن علي الذي صار بعد أخويه أكبر أبناء علي. وكان عقلاء أهل الكوفة يسمونه الداعية الكـذّاب ويتهمونه بسوء الطويّة. وكان يملك القدرة على التأثير فـي الغوغـاء واسـتطاع اجتذاب رؤساء الشيعة في الكوفة، وأرسل إلى محمد بن علـي وهـو مـضطهد محبوس في مكة جندا يخلّصونه من شدّته فنجحوا[6] ولكن أمر المختار لم يطل في الكوفة إذ أن عبد الله بن الزبير جهّز له جيشا يقوده أخوه مصعب فسانده أشـراف العراق وكانت الغلبة له إلا أن ذلك لم يقض على التشيع في العراق بل ظل كامنا ينتظر من يثيره لينتفع به.

أما محمد بن عليّ فإنه بايع عبد الملك بن مروان بعد أن استقر الأمر له وقضى على فتنة ابن الزبير ودانت له الأقاليم الإسلامية كلها. ومع قيامه بهذه البيعة لـم تزل له شيعة تراه أحق بالخلافة. ولما مات غلا فيه بعضهم فأنكر موته وقال إنـه تغيّب وسيرجع[7]

اضطربت أفكار الشيعة بعد موت محمد بن علي فمنهم من استمر على ولائـه وقال بغيبته ورجعته ومنهم من تولى بعده ابنه أبا هاشـم ويُقـال لهـذا الفريـق الكيسانية* نسبة إلى كيسان حيث كان لهم أنصار كثر.

* ويطلق عليهم اسم الخشابية لأنهم قاتلوا بالبنود وكانوامن الموالي من أهل الشيعة (المنجد)

ومنهم من تولى بعد الحسين ابنه عليا المعروف بزين العابدين وهو ممن بـايع يزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان، ولم يُعرف عنه أنه طلب الخلافة لنفـسه. وقال هؤلاء أن الخلافة محصورة في أولاد علي من فاطمة، ولما كان الحسين هو الذي قُتل دون الخلافة فهي في عقبه. وعليّ هو الذي بقي من أولاد الحسين بعـد وقعة كربلاء. ويُقال لهؤلاء الشيعة الإماميّة.

وبعد وفاة علي زين العابدين افترقت بالشيعة الطرق فمنهم من تولى بعده ابنـه محمد الباقر زاعمين أنه الإمام بعد أبيه. ومنهم من قال أن الخلافـة حـق لكـل فاطمي اتصف بصفات العلم والشجاعة والسخاء. ومن هؤلاء من قام بمساعدة زيد بن علي بن الحسين وهم المعروفون بالشيعة الزيدية. والذين حاولوا الوصول إلى الخلافة وانتزاعها من بني أمية هم الشيعة الكيسانية الذين ساعدوا علي بن عبد الله بن عباس وهو الذي انتشر منه الخلفاء العباسيون. والسبب كما يُقال أن أبا هاشـم بن محمد بن علي ابن أبي طالب لما حانت منيته كان مقيما في الحمية عند بنـي عمه فأدلى بنصيبه في الخلافة إلى علي وأولاده وأوصى أوليـاءه بـه فـصارت الشيعة الكيسانية بجانبه، والشيعة الزيدية الذين ساعدوا زيدا وابنه يحيى.

انتقل ولاء الكيسانية بعد وفاة علي العباس إلى ابنه محمد، وانتقل ولاء الإمامية إلى جعفر الصادق بن محمد الباقر. ولم يفعل أنصار الأئمة شيئا ليُرجعوا الخلافة إلى ذوي الحق فيها حسب رأيهم.

أما الشيعة الزيدية فقد دعاهم زيد بن علي للقتال فقاموا بنصرته حيـث خـرج بالكوفة طالبا الخلافة إلا أن بني أمية، ولم يكن بعد قد ظهر فسادهم، سرعان مـا انتصروا على زيد فأطفؤوا ثورته وقتلوه وصلبوه، وثار بعده ابنه يحيـى فكانـت خاتمته خاتمة أبيه[8]

أوعز محمد بن علي بن عبد اله بن عباس إلى شيعته أن يؤلفوا مـنهم دعـاة يدعون الناس إلى ولاية أهل البيت بدون أن يسموا أحدا خوفا عليه من بني أميـة ورأى أن أحسن منطقة تُبث فيها الدعوة هي الكوفة وبلاد خراسان. أما الكوفة فهي مهد التنشيع لأهل البيت وأما خراسان فلسهولة الدعوة فيها. ففكرة التشيع يفهمها

الخراساني المسلم لأن نقل الخلافة إلى بيت النبي صاحب الرسالة وسـيد الأمـة مفهوم لديه وهو قريب مما كان عندهم من الملك الذي يتوارثه أهل بيته ولا يجوز نقله إلى غير بيت الملك إلا إن كان ذلك عن اختلاس.

يقول أبو بكر بن أحمد بن محمد الهمذاني المعروف بابن الفقيـه فـي كتـاب البلدان:

كان محمد بن عليّ بن عبد الله قد قال لدعاته حين أراد توجيههم إلى الأمصار_ أما الكوفة وسوادها فشيعة علي وولده_ وأما البصرة وسـوادها فعثمانيـة تـدين بالكف، تقول كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل- وأما الجزيرة فمارقـة وأعراب كأعلاج ومسلمون في أخلاق النصارى- وأما أهل الشام فليس يعرفـون إلا آل أبي سفيان وطاعة بني مروان وعداوة راسخة وجهل متراكم- وأمـا مكـة والمدينة فقد غلب عليها أبو بكر وعمر، ولكن عليكم بخراسان فإن هنـاك العـدد الكثير والجلد الظاهر وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ولـم يتوزعها الدغل. وهم جند بهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهـل وهامـات ولحـى وشوارب وأصوات هائلة ولغات فخمة. وبعد فإني أتفاءل إلى المشرق وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق.

الشيعة[9]

هي فرع من الدين الإسلامي متميزة عن غالبية السنة وهـي إحـدى الفـرق الانشقاقية التي نشأت في وقت مبكر من المجتمع والفتوحات الإسلامية تساند عليا رابع الخلفاء الراشدين ابن عم النبي، وتطالب بالخلافة لنسله مـن فاطمـة بنـت الرسول. ومن هذا الانشقاق السياسي تطور الأمر إلى حركة دينية. وفي منتصف القرن العشرين كان عشر المسلمين من الشيعة. والشيعة هي دين الغالبية في إيران والعراق واليمن، وهي موجودة في سوريا ولبنان وشرق الجزيرة العربية وشمال الهند في دكا وبومبي وغيرهما.

كان علي ابن عم الرسول وصهره ووالد حفيديه الحسن والحسين مـن ابنتـه فاطمة. وأصبح خليفة في 44 هجري وقد ساندة أتباعه بعد مقتل الخليفة عثمـان

(وهو صهر للرسول). وبعد اغتيال علي أصبح خصمه معاوية خليفة، وكان عليّ يُلعن من على المنابر. ولكن كثيرا من المسلمين خصوصا في العراق مقر علـي كانوا يأملون في رد الاعتبار إلى آل البيت ورد حقوق الخلافة إلى نسله. وعنـد موت معاوية دعوا الحسين ابن علي ليصبح خليفة، ولكنهم فشلوا في حمايته فقُتـل هو وعصبته عند كربلاء قرب الكوفة، وهي اليوم مركز لحج الشيعة. ومنذ ذلـك الحين يخرج أهل الكوفة في مظاهرة دينية في يوم موته ينتحبون من أجل مـوت حفيد محمد ويقسمون بالانتقام من الدولة الإسلامية المنتصرة.

ولم تلبث قضية عليّ أن وجدت مساندة من جماعات أخرى تعـارض الـسلطة الإسلامية القائمة، مثل العائلات الأرستقراطية المسلمة في المدينة التـي أنـشأت تقليدا يستوجب فيه تسليم الحكم لآل عليّ، ومن تقاة المسلمين الذين أخذوا يحتجون بسبب التفسير الدنيوي للإسلام، ومن مسلمين من غير العـرب كـانوا يطـالبون بوضع يساويهم مع العرب. ولم يحصل آل عليّ على السلطة، بالرغم أن مـساندة الشيعة هي التي رفعت الخلافة العباسية إلى الحكم في 138 هجري. ومع هذا فإن عليّا كان يُعتبر من أعظم أبطال المسلمين السنّة، وذريته من فاطمـة كانـت لهـا وضع متميّز كسادة وأشراف. ولكن الشيعة لم يكتفوا والـبعض مـنهم الزيـديون (الذين انتشر بينهم الإسلام عن طريق زيد بن الحسن) كانوا فـي القـرن الثالـث الهجري يطالبون أن يكون الخليفة من ذرية الحسن أو الحـسين ولـو باسـتخدام العنف، إذا كان مؤهلا بعلمه وكفاءته. وهم لا يختلفون عن الـسنّة إلا باليـسير. وأنشأوا دويلات عند بحر الخزر وفي اليمن ويحكمون اليمن الآن. وشيعة آخرون يدعون الإماميين كانوا يصرون على دور ديني أكثر تمجيدا لآل عليّ، فلو كـان أحد ذرية عليّ في السلطة أو لم يكن فهو الإمام المختار من الله وله وحده السلطة على المسلمين لقيادتهم في شؤون دينهم وقوانينهم. وهؤلاء الغلاة قد يـذهب بهـم الأمر إلى تقديس الأئمة، إو إلى إضفاء نور محمدي علوي يتجسّد فيهم ويعطـيهم معرفة وقوة خارقة، وآلامهم كانت حافزا ربانيا لأتباعهم. إن حب الأئمة والقضية التي استشهدوا في سبيلها تصبح مساوية للاعتقاد بوحدة الإله وبرسالة محمد. وفي

كل عام أثناء شهر محرّم، عندما قُتل الحسين، يبكي الشيعة موته (وأحيانـا بجلـد أنفسهم بالسلاسل*) ويتهمون السنّة المذنبين. وكانوا تحت حكم السنّة يجدون أنّهـم مُجبرون على حماية أنفسهم بإخفاء مذهبهم " تقية"؛ ويؤمنون أن الإمام المهدي في نهاية الأمر سيخلّص المؤمنين ويُعاقب أعداءهم.

كثير من الطوائف الشيعيّة تعتبر الأئمّة هم خط محمد بن الحنفية، ابن عليّ من فاطمة. ولكن هؤلاء انقرضوا في القرن الثالث الهجري. ومعظم الطوائف الشيعيّة تعترف بخطّ أو خطّين من حفيد الحسين جعفر الصادق 153 هجـري وأحـدهما الإسماعيليّون الّذين طوروا نظاما دينيا موحدا وأسسوا الخلافة الفاطميـة وعـنهم انشق دروز سوريا.

وهناك غالبية شيعية محدثة تعترف بخط يصل إلى الإمام الثاني عـشر محمـد المُنتظر، ويعتقدون أنه ذهب في الغيبة الكبرى في 266 هجري وأنه سيعود باسم المهدي ليقيم العدل في الأرض. وبين هؤلاء النصيرية أو العلويون فـي شـمال سوريا الذين يختلط مذهبهم بإيمان سري ذي أصل معقّد. ويتبعهم في هذا فلاحـو ورعاة كردستان وتركيا وإيران، والمتاولة في سوريا ولبنان.

وبالرغم من وصول الشيعة أحيانا إلى الحكم، فإن الشيعة بقوا مذهب أقلّية حتى القرن السادس عشر إذ جعله الصفويون في فارس دين الدولة. ومن إيران انتـشر في أذربيجان والعراق. وهؤلاء يُدعون ألاثني عشرية وقد أعطوا المـذهب قـوة جديدة معاصرة. إن الأصوليين وهم الذين يعترفون بالمبادئ الـشرعية الأصـلية الإسلامية دون الخوض في الصراع على الخلافة كانوا يتجادلون مع الجماعـات الأخرى كالبهائية في القرن التاسع عشر حول النصوص المعترف بها. ورجـال الفقه المؤهّلون للوصول إلى قرارات حاسمة يذهبون إلى أماكن الحـج الـشيعية وخصوصا النجف ويُدعون بالمجتهدة يمثلون شيعة الإمام الثاني عشر. ويشرحون

* عادة وثنية قديمة تعود إلى عبادة إلانا وعشتار. كان الكهنة في تلك الاحتفالات يجلدون أنفسهم بالسلاسل وبعضهم يخصي نفسه.

الشرع الإسلامي حسب المذهب الجعفري الذي يختلف في بعض التفاصيل عن المذهب السنّي ولهم دور سياسي كمراجع شعبية وخصوصا في إيران.

الأئمّة الاثني عشر هم: 1- عليّ المرتضى بن أبي طالب زوج فاطمة2- الحسن المجتبى 3- الحسين الشهيد 4- عليّ زين العابدين السجّاد5- محمد الباقر 6- جعفر الصادق 7- موسى الكاظم 8- عليّ الرضى 9- محمد التقي 10- عليّ التقي 11- الحسن العسكري الزكي؛ وآخرهم محمد المهدي المنتظر الذي اختفى نحو 873 ميلادي (260 هجري) وتدوم غيبته إلى أن يعود في آخر الزمان فيملآ الأرض عدلا ؛ والاثنا عشريون موجودون في إيران وباكستان والعراق وتركيا وجنوب لبنان.

الصفويّون هم الذين جعلوا من الاثني عشرية مذهب الدولة في إيران في القرن السادس عشر الميلادي ولا يزال حتى اليوم.

والشاه إسماعيل الصفوي[10] ادّعى أنه من ذرية الشيخ صافي الدين المنتسب إلى الرسول من خلال خط موسى الكاظم سابع الأئمّة. وكان الشيخ صافي الدين وابنه وولي عهده الشيخ صدر الدين من السنّة. ولكن ابن صدر الدين تبنّى المذهب الشيعي بشكل معتدل وتلاه خليفته الشيخ إبراهيم وكان متطرّفا، وقد حارب سنّة داغستان في عام 1455 ميلادي. وأعطى ابنه الشيخ حيدر إلى أتباعه الذين كانوا جميعا من الشيعة التركمان طواقي حمراء عليها اثنا عشر تجويفا فأصبحوا يلقّبون (**بالكزلباش**) أي ذوي الرؤوس الحمراء. وكان حيدر عسكريا وقُتل في حرب ضد السنّة عام 1488 ميلادي عندما كان ابنه إسماعيل في الثالثة من عمره. وقُتل أخواه في المعارك فأصبح إسماعيل زعيم صوفية أردبيل. ولم يدعمه فقط التركمان المحليون بل كثير من القبائل الأخرى التي كانت تطلب الحماية هربا من اضطهاد الأتراك العثماني. وبمساعدة هذه القبائل استطاع إسماعيل احتلال تبريز حيث تُوّج شاها على أذربيجان في 1501 ميلادي ثم لم يلبث أن احتل القسم الأعظم من فارس. ثم هاجم السنّة في أوزبكستان وهزمهم. وبالرغم أن كثيرا من رعاياه كانوا من السنّة إلا أنه فرض المذهب الشيعي في غمرة حماسه وجعل منه

دين الدولة مما أوقعه في صراع مع السلطان سـليم الأول التركـي الـذي كـان متعصّبا للسنة. ووقع بينهما الصراع عام 1514 ميلادي واسترد السلطان سليم ما احتلّه منه الشاه إسماعيل. ولكن نظام الدراويش **الكزلباش** الذي أسسه بقـي فـي تركيا حتى اليوم وهم يشكلون شيعة تركيا، كما أننا نجد في العراق من الأكراد من هم على مذهب الشيعة. وكذلك في فارس أصبح المذهب الشيعي هو السائد.

ويقول جيبون عن الشيعة[11]

إن التنافر المذهبي بين أصدقاء وأعداء عليّ كان يتجدد في كل العصور منـذ الهجرة، ولا يزال قائما في الكره المميت بين الفرس والترك. إن الموالين لعلـيّ الذين يُطلق عليهم اسم الشيعة قد أغنوا الإسلام بمذهب جديـد، وإذا كـان محمـد رسولا فإن صاحبه عليّا هو ولي الله. وهم في أحاديثهم الخاصّة، وفـي عبـادتهم العامة، يلعنون بمرارة المغتصبين الثلاثة الذين سلبوه حقه المبرم فـي أن يكـون إماما وخليفة؛ واسم عمر يعبّر في لسانهم عن منتهى الشر وقلة التقوى. أما السنّة المدعومون بموافقة الغالبية والتراث المجمع عليه من المسلمين، فهم أكثر إنـصافا أو على الأقل لهم رأي أكثر لباقة. فهم يحترمون ذكرى أبي بكر وعمر وعثمـان وعليّ، الخلفاء الشرعيون الأتقياء للنبي. ولكنهم يعطون مكانا أدنى لزوج فاطمـة حسب تسلسل الخلافة. إن مؤرخا يقارن الخلفاء الأربعة ويزن مزايـاهم بيـد لا ترتعش بالتعصّب سيعلن بهدوء أن أخلاقهم جميعا كانت نقية ومثالية وأن حماسهم شديد مخلص، وأنهم بالرغم من الثروات والسلطة كانت حياتهم مكرسة لممارسـة الواجبات الدينية والأخلاقية. إن الفضائل العامة لأبي بكر وعمـر، وفطنـة الأول وصرامة الثاني قد دعمت سلام وازدهار حكمهما، ولكن عهد عثمـان الـضعيف المتقهقر كان غير قادر على القيام بعبء الحرب والإمبراطوريـة. وقـد اختـار فخُدع، ووثق فخانه من وثق بهم، إن أكثر المؤمنين أهلية وكفاءة أصبحوا عديمي الأهمية أو معادين لحكمه. ولم ينتج سخاؤه إلا الجحـود والاسـتياء. امتـد روح الشقاق إلى الأقاليم؛ وكانت وفود المنشقين تجتمع في المدينة، ومـنهم الخـوارج المتعصبون اليائسون الذين نزعوا نير الحيف عنهم ومعاقبة قاهريهم.

عسكر على بعد فرسخ من المدينة، رجال مسلّحون من الكوفة والبصرة، ومن مصر ومن قبائل الصحراء، وأرسلوا مندوبين عنهم إلى الخليفة يطلبون منه ان يُحق الحق أو يتنازل عن الخلافة. ولما أظهر عثمان ندمه بدؤوا يتفرقون وينزعون أسلحتهم. إن تزوير بعض من عديمي الذمة قد نُسج ليعصف بسمعته ويسارع في سقوطه. وفقد الخليفة الحارس الوحيد لمن سبقه من الخلفاء، تقدير وثقة المسلمين. وخلال حصار دام ستة أسابيع مُنع فيها عنه الماء والمؤن انهارت أبواب القصر الضعيفة لتتدفق موجة من المتمردين. وتوقع عثمان اقتراب الموت وقد هجره أولئك الذين أساؤوا استعمال بساطته لمصلحتهم، وكان عاجزا مهيبا. وتقدم أخو عائشة على رأس القتلة، وأثخنوه جراحا والقرآن في حجره. وهدأت الفوضى العنيفة بعد خمسة أيام عند تنصيب علي للخلافة، وقبلها لأن رفضه كان سيثير مذبحة عامة، وفي هذا الوضع المؤلم كان يدعم رئيس الهاشميين، ويعلن أنه يفضل الخدمة على الحكم، ويؤنب الأغراب على ظنونهم، ويطلب الموافقة الرسمية لا الاختيارية من رؤساء الشعب. إنه لم يُتّهم قط بأنّه وراء مقتل عمر، بالرغم أن فارس المتشيعة كانت تحتفل دون تحفّظ بمقتل ذلك الشهيد المقدّس وتعيّد له؛ إن الخصام بين عثمان ورعاياه كان يهدأ وتخف حدّته بتدخّل عليّ. وحسن اكبر أبنائه، أهين وجُرح دفاعا عن الخليفة، ولكن من المشكوك فيه أن والد الحسن كان قد بذل جهده بإخلاص في معارضة المتمرّدين. فالإغراء أصبح من الضخامة بحيث يُدير الرؤوس ويفسد الفضائل. فالمرشّح الطموح لم يعد يطمح إلى صولجان الجزيرة العربية وحدها، فالمسلمون كانوا منتصرين في الشرق والغرب؛ وكانت ثروات ممالك فارس وسوريا ومصر ميراثا لأمير المؤمنين.

لم تتلم حياة الصلاة والتأمّل عليّ الحربي؛ ولكنّه في سن النضوج، بعد تجربة طويلة مع الإنسانية، كان يتكشّف عن سلوك فيه اندفاع وعدم تبصّر الشباب. ففي الأيام الأولى من حكمه أهمل أن يؤمّن بالهبات أو القيود ولاء طلحة والزبير المشكوك في ولائهما. كان هذان من أقوى زعماء العرب، وفرّا من المدينة إلى مكّة، ومن ثم إلى البصرة، ورفعا راية الثورة؛ واستوليا على الحكم في العراق

والتمسا بغرور أن تكون مكافأة لهما على خدماتهما. إن قناع الوطنية يخفي أحيانا تناقضات مذهلة، وأخذ أعداء عثمان، ولعلّهم قتلته، بالمطالبة بدمه. وكانوا برفقة عائشة، زوج النبي، التي بقيت حتى النفس الأخير تضمر العداء لزوج فاطمة. إن المسلمين الأكثر تعقلا هالهم أن تعرض أم المؤمنين شخصها وطبعها في معسكر. ولكن الجمهور كان واثقا أن حضورها سيبارك عدل قضيته ويضمن نجاحها. واندفع عليّ على رأس عشرين ألفا من العرب المخلصين وتسعة آلاف من روافد الكوفة الشجعان، وهزم أعداد المتمرّدين المتفوّقة عليه تحت أسوار البصرة. وقد قتل طلحة والزبير في المعركة الأولى التي خضبت بدم الأهل سلاح المسلمين. وكانت عائشة قد اختارت مكانا لها وسط أخطار ساحة القتال بعد أن مرّت بين الصفوف لتحرّض المقاتلين. وفي غمار المعركة قُتل سبعون رجلا ممن كانوا يمسكون لجام ناقتها أو جرحوا؛ وكانت السهام والرماح تضرب الهودج حيث قبعت فيصبح وكأنّه شوك القنفذ. وتجالدت الأسيرة الجليلة بثبات جأش أمام لوم وتأنيب عليّ، ثم أُرسلت إلى مكانها الملائم قرب ضريح محمد، مع الاحترام والرفق الجديرين بأرملة الرسول. وبعد هذا الانتصار، الذي أُطلق عليه يوم الجمل، سار عليّ لمواجهة خصمه الهائل، معاوية بن أبي سفيان الذي اتخذ لقب الخليفة، وكان مدعوما من القوات السورية ومن أصحاب المصالح في آل أميّة، ووصل إلى سهل صفّيّة الذي يمتد على طول الضفة الغربية من الفرات. وعلى هذا المسرح المنبسط الفسيح شن المتنافسان حربا ضروسا دامت مائة وعشرة أيام. وخلال تسعين من العمليات والمناوشات قُدرت خسارة عليّ بخمس وعشرين ألفا وخسارة معاوية بخمس وأربعين ألفا من الجنود، لقد تشرّفت صفحة القتلى بأسماء خمس وعشرين متطوعا ممن حاربوا في بدر تحت راية الرسول. وفي هذا الصدام الدموي كشف الخليفة الشرعي عن خلق متفوق في الشجاعة والإنسانية. نهى قواته عن أن تكون البادئة في القتال، أو أن تلاحق الهاربين أو تمثل بالقتلى أو أن تنتهك حرمة الأسيرات. كان يرغب حقن دماء المسلمين بنزال منفرد، ولكن منافسه الذي كان يرتعد فرقا رفض تحديا كان معناه الحكم عليه بالموت المحتّم.

وانفرطت صفوف السوريين بهجوم البطل الذي كان يمتطي صهوة حصان أبلـق ويُعمل سيفه الثقيل ذا الحدّين بقوة لا تُقاوم. وكلما ضرب متمرّدا كان يـصيح" الله أكبر "، وسُمع يُرددها أربعين مرة في تلك المعركة الليلية. كان أمير دمشق يـدبّر أمر فراره، ولكن النصر الأكيد تخلّى عن عليّ بسبب عصيان وحماس قواته. فإن ضمائرهم استجابت في أن يكون القرآن الذي وُضع على أسنّة الرماح حكما بـين الفريقين؛ لقد اضطر عليّ أن يُذعن لهدنة شائنة وتسوية ماكرة. وتراجـع حزينـا واجدا إلى الكوفة، وثبطت عزائم جماعته؛ أما منافسه الماكر فقد أخضع منـاطق بعيدة في فارس واليمن ومصر أو أغراها بالانضمام إليه. ولسوء حظ علـيّ لـم تُصب الضربة المميتة الموجهة إلى زعماء الأمّة الثلاثة سواه إذ اجتمع في حـرم مكة ثلاثة من الخوارج المتحمّسين، وسرعان ما اتفقـوا علـى أن مـوت علـيّ ومعاوية وصديقه عمرو ونائبه في مصر سيعيد السلام ووحدة الدين. اختار كـل من القتلة ضحيّة، وسمم خنجره وكرّس حياته للعمل سرا للوصول إلى هذا الهدف. كان قرارهم يائسا، ولكن الأول فشل في معرفة عمرو وطعن نائبه الذي كان يحتل مقعده؛ وأصيب أمير دمشق إصابة خطرة من الثاني؛ أما الخليفة الشرعي فكانـت طعنته مميتة على يد الثالث. وتوفّي في الثالثة والستين. وأُخفي قبـر علـيّ عـن الطغاة من آل أميّة ولكن في القرن الرابع الهجري شُيد قبر وحرم ومدينة قـرب خرائب الكوفة.

إن ألوف الشيعة يستريحون في الأرض المقدّسة عند قبر ولي الله، والصحراء تنتعش وتُبعث فيها الروح بزيارات الفرس المتعددة السنوية الذين يقدّرون ولاءهم له بحماس لا يقل عن الحج إلى مكّة.

المعارضة في الخلافة العبّاسية

كان المتشيّعون لآل البيت فرقا ثلاثة. فرقة ترى أن إمام المسلمين معيّن بالنص من ولد فاطمة بنت الرسول وهؤلاء هم الإمامية. وكانوا يتولّون زمن المنـصور جعفر بن محمد بن علي بن الحسين المعروف بالصادق، وفرقة تـرى ان، إمـام المسلمين يكون من بني فاطمة إلا أنه معيّن بالوصـف لا بالاسـم وهـؤلاء هـم

الزيدية، ويرون الخروج مع كل من دعا إلى نفسه من بني فاطمة متى كانوا موصوفين بالصفات الواجب أن تكون في الإمام من العلم والشجاعة والورع وغير ذلك وهم نصراء زيد بن عليّ وابنه يحيى. وفرقة ترى إمامة أهل البيت من غير تقييد ببني فاطمة وهم الذين نصروا بني العبّاس. وكانت الفرقتان الأوليان منتشرتين في كثير من الأقاليم العربية والأعجمية. وكانت الدعوة العباسية قبل ظهور أمرها مبهمة فلما ظفرت الدولة العباسية نفس عليهم بنو عمهم من العلويين الخلافة وعدّوهم غاصبين للأمر، وأعظمهم في ذلك رجلان: أحدهما جعفر الصادق إمام الإمامية ولكنه رضي بما تمّ ولم يحرك ساكنا وكان يوصي أصحابه بالخلود إلى السكينة لأنه لم ير فرصة معقولة، وثانيهما محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب الذي بويع له بالخلافة في أواخر عهد بني أمية، وكان بين من بايعه أبو جعفر المنصور.

ولما جاءت الدولة العباسية لم يبايع لأبي العباس ولا لأبي جعفر المنصور. ولما حج أبو جعفر في عهد أخيه السفاح حضره في المدينة بنو هاشم جميعا إلا محمد بن عبد الله وأخاه إبراهيم فنقم عليهما وترصد أخبارهما وأنفق كثيرا من المال في طلبهما.

وزاد المنصور في إرهاق محمد فأخذ من بني الحسن ثلاثة عشر رجلا وحبسهم في المدينة ثم نقلهم إلى العراق فحملوا مقيدين بالأغلال والأثقال، وحبسوا بقصر ابن هبيرة شرق الكوفة وعُذبوا حتى مات أكثرهم في السجن.

وعزم محمد على الظهور نتيجة هذه الفظائع فدخل المدينة ومعه 250 رجلا فأتى السجن ففتحه وأخرج من فيه ولم يقاومه أحد من أهل المدينة بل أعانوه وخذلوا أميرها. وكان خروجه عام 145 هجري ولقد خطب في أهل المدينة ومما قاله:" أيها الناس إني والله ما خرجت بين أظهركم وأنتم عندي أهل قوة وشدة ولكنني اخترتكم لنفسي. والله ما جئت هذه وفي الأرض مصر يعبد الله فيه إلا وقد أخذت فيه البيعة."

والذي أوقع محمد في هذا الفخ أن المنصور كان يكتب لمحمد على ألسن قواده، يدعونه للظهور ويخبرونه أنهم معه فكان محمد يقول: لو التقينا لمال إلي القـواد كلهم.

وبالرغم أن محمدا وأخاه إبراهيم كانا من أحسن الطالبيين خلقا وأنظفهم تاريخا، إلا أن الحظ خانهما لأنهما لم يجدا أسباب القوة فسقطا في الصراع ضـد الدولـة العباسية الفتية وهي في أوج قوتها.

وقد بقيت بقايا بني الحسن مشردين في عهد أبي جعفر المنصور بعد أن قُتـل منهم من قُتل ومات من مات وحُبس من حُبس. ويروي محمد بن جرير الطبـري أن المهدي آلت إليه خزانة (مكان خزن) مما خلف والده فدخلها فإذا أزج كبيـر فيه جماعة من قتلى الطالبين وفي آذانهم رقاع فيها أنـسابهم، وإذا فـيهم أطفـال ورجال ومشايخ عدة كثيرة فلما رأى ذلك المهدي ارتاع لما رأى وأمر فحُفرت لهم حفيرة فدُفنوا فيها[12]

في عهد المهدي خرج عليه بالمدينة الحسين بـن علـي بـن الحـسن سـنة 169هجري وكان والي المدينة وقتها عمر بن العزيز بن عبد الله بن عمـر بـن الخطاب. وسبب خروجه أن عمر بن عبد العزيز أخذ الحسن بن محمـد الـنفس الزكية وجماعة كانوا على شراب لهم، فأمر بهم فضُربوا جميعا ثم أُمر بهم فجُعل في أعناقهم حبال وطيف بهم في المدينة. فذهب إليه الحسين بن علي فكلّمه فـيهم وقال له ليس هذا عليهم وقد ضربتهم ولم يكن لك أن تضربهم لأن أهل العراق لا يرون به بأسا فلم تطوف بهم؟ فبعث إليهم وقد بلغوا البلاط فردّهم وأمر بهم إلـى الحبس فحُبسوا يوما وليلة ثم كُلم فيهم فأطلقهم جميعا. ووُضعوا تحـت المراقبـة ولكن النفس الزكية اختفى ثلاثة أيام. وكان بالمدينة جماعة من أهل الكوفـة مـن شيعتهم اقتحموا المسجد. ولما أذن الصبح جلس الحسين على المنبر وعليه عمامة بيضاء، فلما صلى الغداة جعل الناس يأتونه ويبايعونه على كتاب الله وسنّة نبيّـه، وقاومهم جماعة من نصراء الدولة فلم يُفلحوا.

أقام الحسين بالمدينة بعد إعلان الخروج أحد عشر يوما ثم فارقها قاصدا مكة. وانتهى خبر الحسين إلى الهادي فشمّر للحرب وكانت عاقبة المعركة أن قُتل الحسين بن علي الثائر وجماعة ممن معه وأُفلت رجلان لهما تاريخ جليل وهما إدريس أخو محمد النفس الزكية وهو مؤسس دولة الأدارسة في المغرب الأقصى وأخوه يحيى بن عبد الله الذي ذهب إلى بلاد الديلم[13]

كان الطالبيون شغل بني العباس الشاغل فإنهم كانوا لا يزالون متطلعين إلى نيل الخلافة كما كانت شيعتهم تتحين الفرصة الملائمة لإقامة دولتهم. وكان بنو العباس من اجل ذلك لا يأمنون جانبهم. لكن الرشيد في أول ولايته أراد أن يستميل قلوبهم بشيء من الإحسان إليهم. وكان أول ما فعله معهم أنه رفع الحجر عمن كان منهم ببغداد وسيّرهم إلى المدينة ما خلا العباس بن الحسن بن عبد الله بن علي. وكان أبوه الحسن فيمن أشخص. ومع هذا الذي بدا منه لم يتركه الطالبيون على سجيته فكان من أول الخارجين عليه يحيى بن عبد الله بن الحسن بن علي، وهو من الناجين من وقعة فخ التي كانت في عهد الهادي. ذهب إلى بلاد الديلم فاشتدّت شوكته بها وقوي أمره ونزع إليه الناس من الأمصار والكور فاغتم الرشيد لذلك وترك شرب الخمر ثم ندب إلى قتاله الفضل بن يحيى بن خالد في خمسين ألفا ومعه صناديد القوّاد فسار يحيى فكاتبه ورفق به واستماله وحذّره وأشار إليه وبسط أمله. وكاتب صاحب الديلم وجعل له ألف ألف درهم على أن يسهّل له خروج يحيى، وحملت إليه. فأجاب يحيى إلى الصلح والخروج على يديه على أن يكتب له الرشيد أمانا بخطّه فكتب الفضل بذلك إلى الرشيد فسرّه وعظم موقعه عنده وكتب الأمان وأشهد عليه الفقهاء والقضاة وجلّة بني هاشم ومشايخهم ووجه به مع جوائز وكرامات وهدايا فوجه الفضل بذلك إلى يحيى فقدم عليه وورد به الفضل بغداد فلقيه الرشيد بكل ما أحب وأمر له بمال كثير وأجرى عليه أرزاقا سنّية وأنزله منزلا سريا بعد أن أقام بمنزل يحيى بن خالد أياما وكان يتولى أمره بنفسه ولا يكل ذلك إلى غيره وأمر الناس بزيارته بعد انتقاله من منزل يحيى والتسليم عليه. وبلغ الرشيد الغاية من إكرام الفضل.

الأدارسة

كان إدريس بن عبد الله بن الحسن ممن هرب من وقعة فخ، وهو أخو يحيـى، وسار إلى مصر ومنها اتجه إلى الغرب الأقصى فالتفّ حوله برابرة أوروبا، فكوّن هناك أول خلافة للعلويين وهي دولة الأدارسة. وكـان نزولـه بمدينـة وليلـي سنة172هجري، وكانت بيعته في تلك السنة. ولما بلغ هـارون الرشـيد أن أمـر إدريس قد استقام ببلاد المغرب وكثرت جنده وفتح بلاد تلمسان وأنّه عازم علـى غزو إفريقية همّ أن يُرسل إليه جيشا ولكنّه عدل عن ذلك لبعد الشقة. واختار رجلا داهية اسمه سليمان بن جرير ويُعرف بالشمّاخ وطلب منه أن يحتـال فـي قتـل إدريس وزوّده مالا وطرفا يستعين بها على أمره فسافر الرجل ووصل إلى إدريس مظهرا النزوع إليه متبرئا من الدعوة العبّاسية، فقبله إدريس واختص به وأعجـب بحديثه ولما انتهز الفرصة سمّه وفرّ هاربا فمات إدريس سنة 177هجري ولم يكن له ولد إلا من أمة كانت حاملا فانتظروا وضع حملها فوضعت ولدا ذكـرا سـمي إدريس على اسم أبيه وبايعوه بالخلافة واستمرت دولة الأدارسة في المغرب رغم أنف الرشيد.

وبذلك تم خروج إقليمين عظيمين عن الخلافة العباسية وهما بلاد الأندلس على يد عبد الرحمن بن معاوية الأموي وبلاد المغرب الأقصى مع تلمسان علـى يـد إدريس بن عبد الله.

كان الرشيد بسبب هذه الحوادث يخاف الطالبيين جدا، ومن اتهم مـن النـاس بالميل إليهم عاقبه أشدّ العقوبات. وأخذ موسى بن جعفر المعروف بالكـاظم إلـى بغداد فأقام بها إلى أن مات وهو السادس من أئمّة الشيعة الإمامية[14]

اختار المأمون لولاية عهده عليّا الرضا بن موسى بن جعفـر الـصادق وهـو الثامن من أئمة الشيعة الإمامية الاثني عشرية، وسمّاه الرضا من آل محمد. وأمر جنده بطرح السواد شعار العباسيين ولبس ثياب الخضرة الذي اختاره شعارا للدولة وكتب بذلك إلى الآفاق. ويغلب الظن أن هذا من عمل الفضل بن سهل لأن الفرس يعجبهم أن يكون إمام المسلمين علويا. وساعد على ذلك ما كان يراه المأمون نفسه

من تفضيل عليّ على غيره من الخلفاء الراشدين وأنّه كان أحق بالخلافـة مـنهم، فلقد كان المأمون متأثرا بجعفر البرمكي والفضل بن سهل اللذين ربياه، وكلهم من يتشيع لعليّ.

أما أهل بغداد فاختلفوا بعضهم قال نبايع والآخر قال لا نخرج هذا الأمر مـن ولد العبّاس، وإنّما هذه دسيسة من الفضل بن سهل. واتفقوا أخيرا علـى مبايعـة إبراهيم بن المهدي عم المأمون بالخلافة وخلعـوا المـأمون وكـان ذلـك فـي 202هجري.

بلغت هذه الأحوال المأمون وقيل له إن أهل بيته نقموا عليـه أشـياء فبـايعوا لإبراهيم المهدي بالخلافة، وأن الفضل بن سهل يستر عنه الأخبار، وأن الحـرب قائمة بين إبراهيم المهدي والحسن بن سهل، وأن الناس ينقمون على الفضل وعلى أخيه الحسن مكانتهما، ومكان بيعته لعلي الرضا من بعده، وأنّه إن لم يتدارك أمره خرجت الخلافة من يده.

أمر المأمون بالرحيل إلى بغداد، وارتحل من مرو إلى سرخس وهناك شد قوم على الفضل بن سهل وهو في الحمام فضربوه بسيوفهم حتـى مـات سـنة202 هجري فأخذ ضاربوه وهم أربعة من خدم المأمون فلما جيء بهم إليه قالوا أنـت أمرتنا بقتله فأمر بهم فضُربت أعناقهم وبُعث برؤوسهم إلى الحسن بن سهل وعزّاه وأخبره أنّه صيّره مكانه.

واختلف القوّاد الذين ناصروا إبراهيم المهدي، لأن السبب الذي من أجله خلعوا المأمون قد زال فاضطرب أمره في بغداد إذ انفض الناس عنه.

ولما وصل المأمون إلى طوس حدثت حادثة أخرى وهي وفاة علي الرضـى. ويُقال أن المأمون دس له السم ليتخلص من التزامه في أن يكون خليفتـه، أو قـد يكون من فعل ذلك البطانة المأمونية ليبقوا الأمر في بني العبّاس.

بوفاة علي الرضا بطوس سقط جميع العلويين الذين خرجوا في ذلـك الوقـت بالبصرة والحجاز واليمن. وعاد المأمون إلى شعار أهل بيته وهم السواد. وكـان المأمون قد صاهر عليّا الرضا فزوّجه ابنته، ثم زوّج محمد بن علـيّ المعـروف

بالجواد وهو الإمام التاسع من أئمّة الشيعة ابنته الأخرى. ولم يكن من محمد هـ ذا ما يُريب المأمون. وكان يعامل الطالبيين معاملة تناسب اعتقاده في فضل أبـيهم. ومن وصيّته لأخيه المعتصم وهو يجود بنفسه: هؤلاء بنو عمك أميـر المـؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فأحسن صحبتهم وتجاوز عن مسيئهم واقبل من محسنهم. وصلاتهم لا تغفلها في كل سنة عند محلها، فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى[15]

النزاع العربي الفارسي

في النزاع الذي قام بين الأمين والمأمون كان الوزراء يلعبون دورا خطيـرا لمصلحتهم، فكل يتوكأ على أميره لغايته ويستغلّه في سبيل إنجاح سياسته ويدفع به إلى حيث يريد. كان الفضل بن الربيع يقول: لا أدع ملكا حاضرا لآخر لا يـدري ما يكون من أمره. وكانت بطانة الأمين توغر صدره على أخيه وبطانة المـأمون تحفّزه إلى مقابلة العدوان بمثله. بل إن النزاع أضحى بين الفضلين ابن سهل وابن الربيع، ومضمون النزاع فارسي عربي. وقد بدأ الأمر بحرب كلاميّة أخذت تشتد بين الأخوين حتى كانت القطيعة فالحرب. ولم تثمر تلك المحاولة التي قـام بهـا الرشيد حين استكتب كليهما عهدا بما له وعليه قبل الآخر، وأشهد عليهما جماعـة من ذوي المكان والنفوذ ثم علّق العهدين في الكعبة. وكانت روح العصر تـساعد على ذيوع الجاسوسية واستفحال أمرها. فلكل طرف عيون ينقلون أخبار الطـرف الآخر والبطانة يأبى عليها رياؤها ونفاقها وتزلفها إلا أن تنفخ في غـرور ولـي نعمتها فيقع في روعه أن حاشيته لا تنطق إلا حقا ولا تقول إلا صدقا. ثم بـدأت تعبئة الجنود وحشد الكتائب وكتب للجيوش المأمونية النصر على الأمينّية[16]

وهذا كان قد بدأ منذ أول عهد الخلافة العبّاسية. ففي عهد الدولة الأموية كان الجيش عربيا محضا، جنوده وقوّاده. فلما جاءت الدولة العبّاسية كان ظهور نجمها على يد أهل خراسان الذين يرجع إليهم أكبر الفضل في ثلّ عرش الدولة الأمويّـة في أول عهد العباسيين، وكان الجيش فيها مؤلفا من فريقين:

1- الجيوش العربية

2- الجيوش الخراسانيّة.

وقوادهم من الفريقين بعضهم من العرب وبعضهم من المـوالي. وكـان التنازع شديدا بين الفريقين بداعي العصبية، كل يتعصّب لأبنـاء جنـسه. وكان أكبر القواد المعروفين في أول عهد الدولة **أبو مسلم الخراساني** قائد جيوش المشرق الخراسانية. **وعبد الله بن عليّ** لجيوش المغرب ومعظمها عربي من الجزيرة والشام. ولما خرج عبد الله بـن علـيّ عـن طاعـة المنصور من القضاء على أبي مسلم الذي نظـر إليـه نظـرة الـشريك المساوي في القوّة والسلطان. ويظهر أن المنصور لم يكن يرى لمصلحته ومصلحة آل بيته أن تظل كفة أهل خراسان راجحة فاصطنع كثيـرا مـن رجالات العرب وسلمهم قيادة الجيوش كما استعان بأهل بيته[17]

إن ظهور الدولة العباسية على أيدي أهل خراسان والموالي جعل لهؤلاء شأنا عظيما في الدولة ومقاما لا ينقص عن مقام العرب في اعتزاز الدولة بهم، فكان القواد العظام من أهل خراسان ومن العرب. وفي عهد المأمون اعتمد على أهل خراسان فزاد مالهم في تلك الدولة وبقدر ما زادهم نقص من شأن العرب حتى لم يعد للعرب قائد معروف كمـا كـان فـي عهـد المنصور والمهدي والرشيد. وصار معظم المرتزقين من الجند إما هم من أهل خراسان، وصار معظم الاعتماد عليهم. وظهرت أسماء قـواد مـن عناصر أخرى من أتراك ما وراء النهر. روى الطيفوري أنـه تعـرض رجل للمأمون بالشام مرارا فقال: يا أمير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت إلى عجم خراسان. قال: أكثرت علي يا أخا الشام والله ما أنزلـت قيسا عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد. وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبّتني قط، وأمّا قضاعة فسادتها تنتظـر السفياني وخروجه فتكون من أشياعه، وأما ربيعة فساخطة على الله منـذ بعث الله نبيه من مضر. ولم يخرج اثنان منهم إلا خرج أحدهما شاريا[18]

كان من الواضح أن الدولة ليس لها من العربية إلا اللغة والدين، أمـا العصبية العربية للعنصر العربي فقد أشرفت على الإمّحاء.

قال أحد الشعراء البغداديين يصف ما وصلت إليه الحال:

أضاع الخلافة غش الوزير وفسق الإمام وجهل المشير
ففضل وزير وبكر مشير يريدان ما فيه حتف الأمير
وما ذاك إلا طريق غرور وشر المسالك طرق الغرور
وأعجب من ذا وذا أننا نبايع للطفل فينا الصغير
وما ذاك إلا بفضل وبكر يريدان نقض الكتاب المنير
وهذان لولا انقلاب الزمان أفي العير هذان أم في النفير
ولكنها فتن كالجبـال ترفع فيها الوضيع الحقير
فصبرا ففي الصبر خير جميل وإن كان قد ضاق صبر الصبور

كانت الخلافة العباسية في عصر المأمون قد انتهجت أسـلوب احتـواء المعارضة العلوية. وزوّج المأمون ابنته إلى محمد الجواد بن عليّ الرضا تاسع أئمّة الشيعة الإمامية. وفي أول عهد المعتصم توفي محمـد الجـواد وكانت وفاته سنة 220هجري وعمره 25 عاما. فحملت زوجتـه بنـت المأمون إلى قصر عمّها المعتصم، فتولى الإمامية بعده ابنه أبـو الحـسن علي الهادي وسنّه حين مات أبوه سبع سنين

لم يكن هناك من معارضة في الفرع الأمامي ولكن المعارضة الشيعية ظهرت في الفرع الزيدي فخرج على المعتصم من الزيدية محمد بن القاسم بن عليّ بن عمر بن علي بن الحسين بن عليّ. كان مقيما بالكوفـة، ثـم خرج منها على الطالقان من خراسان يدعو للرضا من آل محمـد ولكـن قُبض عليه وأُرسل به إلى المعتصم فحُبس بسامرا سنة 219هجري فأقـام في السجن حتى كانت ليلة الفطر واشتغل الناس بالعيد والتهنئة فهرب على يد شيعته ولم يُعرف له خبر. وانقاد إلى إمامته كثيرون من الزيدية ومنهم خلق يزعمون أنّه لم يمت وأنّه حي يُرزق وأنّه يخرج فيملأ الأرض عدلا

كما مُلئت جورا، وأنّه مهدي هذه الأمّة. وأكثر هؤلاء بناحية الكوفة وجبال طبرستان والديلم وكثير من كور خراسان وبقي ذلك الاعتقاد حتى سنة 332هجري كما قال المسعودي في مروج الذهب.

المعارضة الفارسية

حقيقة أن فارس هي أول دولة ذات حضارة باسقة تدخل الإسلام وتنافس العرب على السلطة، ولكن لا يجب أن يُفهم الأمر بالمفهوم القومي الضيّق لهذه الأيام. إن المعارضة الفارسية لم تكن من أجل فصل فارس عن الحركة الإسلامية أو للارتداد إلى دين الآباء. فهذه أمور تجاوزها التاريخ في ذلك العصر، إذ نمت مصالح كثيرة للفرس مع العرب. فالمعارضة لا تستطيع أن تعمل إلا ضمن دائرة الإسلام، وكانت موجّهة ضد الخلافة العباسية لإبدالها بخلافة علوية تكون أضمن للعدل والمساواة بين الشعوب الإسلامية. وهذا ما يفسر التعاطف المعلن أو المُضمر بين الفرس والعلويين. ولكن الخلافة العباسية كانت قد سارت في طريق الحكم المطلق الذي لا رجعة منه، فما في صدور خلفائها متّسع حتى لأبناء العمومة الطالبيين فنكّلت بهم أشنع تنكيل لتديم الحكم في سلالتها.*

إن صورة العربي المستبد بالسلطة كانت تنطبق على الفئة الحاكمة، أما على نطاق الجماهير فإن الإسلام كان من قوة التأثير بحيث آخى بين القومين. وكان الناس في العراق وفارس عامّة يتعاطفون مع آل عليّ الذين بطش بهم الحكم العبّاسي كما بطش بهم الحكم الأموي من قبل فذهب كثير منهم تصفية واغتيالا.

إن الفرس لم يتنكّروا للخلافة العباسية بمجملهم بل بقيت البلاد تابعة لسلطة بغداد وإن تشكل فيها تيار معارض هو تيار أبي مسلم الذي اغتاله أبو جعفر المنصور لأسباب تعود إلى المخاوف التي تنشأ في مراكز القوى. وبقي هذا التيار المعارض يقلق الأمن خمسين عاما في خراسان،

* راجع تاريخ ابن الطقطقي للتفصيل

ونشأ تيار شيعي معارض كذلك في طبرستان بسبب نجاح الدعوة الشيعية هناك على يد يحيى بن عبد الله زمن الرشيد، ثم على يد الحسن بن زيـد عليها وتشكيل الدولة اليزيدية التي دامت من 250-355هجري.

إن التجاء قادة الشيعة إلى المناطق الجبلية في الهضبة الإيرانية جعـل تلك المناطق التي كانت إلى عهد قريب على الـدين الزردشـتي تـدخل الإسلام على مذهب الشيعة في الدعوة لآل عليّ. وهذا مـا حـدث فـي طبرستان ومنطقة جنوبي بحر الخزر ثم في إقليم الديلم من جوجان. وكان هذا الإقليم قد بقي على الوثنية حتى مطلع القرن الرابع الهجري، ثم بسبب العدوان على ممتلكاته من قبل الأرسـتقراطية الإيرانيـة الوثنيـة دخـل الإسلام، وقام الإخوة الثلاثة من بني بويه في محاربتها فدانت لهم معظـم بلاد فارس.

تحوّل المعارضة إلى مذهب

امتاز المتوكّل عن سائر أهل بيته بكراهية عليّ بن أبي طالـب وأهـل بيته، وكان فيما يُقال يبغض من تقدمه من الخلفاء: المـأمون والمعتـصم والواثق لمحبة علي وأهل بيته. وكان ينادمه ويجالسه جماعـة اشـتهروا ببغض عليّ فكانوا يخوّفونه مـن العلـويين ويـشيرون عليـه بإبعـادهم والإعراض عنهم والإساءة إليهم فأمر في سنة 237هجـري بهـدم قبـر الحسين بن علي بكربلاء وهدم ما حوله من المنازل والدور وأن يحـرث ويبذر ويسقى موضع قبره وأن يُمنع الناس من إيتائه.

وكان إمام الإمامية في عهده، أبو الحسن علي الهادي بن محمد الجواد بين علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بـن عليّ زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، سعى به المتوكـل فأقدمه من المدينة إلى سامرا التي كانت تُعرف بالعسكر فلقب بالعسكري. وقد ظل مقيما بها نحو عشرين سنة ومات بها. ولما جاء سامرا لم تنقطع السعايات عنه فقيل له أن في منزله سلاحا وكتبا وغيرها من شيعته فوجه

إليه ليلا من هجم عليه في منزله وهو غافل فوجد وحده وعليه مدرعة من شعر، ولا بساط في البيت إلا الرمل والحصا، وعلى رأسه ملحفـة مـن الصوف وهو يقرأ ويدعو. فحُمل إلى المتوكل في جوف الليل فمثل بـين يديه والمتوكل يشرب فقال له، أنشدني شعرا فأنشده:

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم غلب الرجال فما أغنتهم القلـ ـ ـل
واستنزلوا بعد عزّ عن معاقلهم فأودعوا حفرا يا بئسما نزلـ ـ ـوا
ناداهم صارخ من بعد ما قُبروا أين الأسرّة والتيجان والحـ ـ ـلل
أين الوجوه التي كانت منعّمـة من دونها تُضرب الأستار والكـلل
فأفصح القبر عنهم حين ساء لهم تلك الوجوه عليها الدود يقتتـ ـ ـل
قد طالما أكلوا دهرا وما شربوا فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا
وطالما عمروا دورا لتحصنـهم ففارقوا الدور والأهلين وانتقـلوا
وطالما كنزوا الأموال وادخروا فخلفوها إلى العداء وارتحـ ـلوا
أضحت منازلهم قفرا معطّلـة وساكنوها إلى الأجداث قد رحلوا[19]

فبكى المتوكل وأمر له بأربعة آلاف دينار يقضي بها دينه، ورده إلـى منزله مكرما.

في زمن المستعين كان لا يزال علي الهادي الإمام العاشر في سـامرا. أما الزيدية فقد خرج منهم:

1- يحيى بن عمر بن يحيى بن حسين بن زيد بن عليّ بن الحسين خـرج بالكوفة، وكان قبل خروجه يتردد بين بغداد وسـامرا يطالـب كبـار الدولة بما يصلح من شأنه فكان يرجع إليهم جمع من الكوفة فعـسكر بهم في ضواحي الكوفة ووجه المستعين جيشه فبادر يحيى إلى الكوفة فاستولى عليها وعل بيت مالها ثم خرج منها وصار يتردد في السواد ثم عاد إلى الكوفة ودعا إلى الرضا من آل محمد وكُشف أمره وتولاه العامة من بغداد ولا يُعلم أنهم تولوا من أهل بيته غيره. أقام بالكوفـة يعدد العدد ويطبع السيوف ويعرض الرجال ويجمع الـسلاح. وفـي

وقعة في ظاهر الكوفة هزم جند يحيى ووضع فيهم السيف وقُتل وأُخذت رأسه إلى المستعين فنصبه بباب العامة بسامرا. وتذمّر الناس وغضبوا. ومع هذا الميل من الناس للعلويين لم يستفيدوا من ذلك، ولم يكن لهم تدبير منتظم ولا استعانة بذوي التدبير من رجال الحرب.

2- خرج الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بنواحي طبرستان قرب بلاد الديلم. وسبب خروجه سفه عمال طبرستان.وزادوا على ذلك أن أحدهم أثار الديلم بدخوله إلى ما قرب من بلادهم من حدود طبرستان وهم أهل سلم وموادعة لأهل طبرستان فسبى منهم ورجع. وتعاقد الديلم وأهل طبرستان أن يعين بعضهم بعضا على حرب من قصدهم بحرب وأرادوا أن يكون على رأسهم رجل يبايعونه فاتفقوا على الحسن بن زيد وكان مقيما بالري فوجّه إليه القوم من دعاه إلى أمرهم فأجاب وتوجه إليهم فبايعوه وبايعه رؤساء الديلم.

وزحف الحسن ومن معه على مدينة آمل حاضرة طبرستان، وطرد العمال من مدن طبرستان وتم للحسين بن زيد الاستيلاء على بلاد طبرستان كلهما. ونجح في تكوين هذه الدولة التي تُعرف بالدولة الزيدية في طبرستان واستمرت هذه الدولة نحو قرن كامل 250-355هجري[20]

في عهد المعز مات عليّ الهادي الإمام العاشر من أئمة الشيعة الإمامية فتولى الشيعة بعده ابنه الحسن العسكري وهو الحادي عشر من أئمتهم وإنما سمي بالعسكري لإقامته بسامرا التي كانت تُدعى إذ ذاك بالعسكر.

وفي عهد المعتمد على الله توفي الحسن العسكري الإمام الحادي عشر سنة 260هجاري بسامرا ودُفن فيها بجانب أبيه على الهادي. ولما توفي اختلفت الشيعة بعده اختلافا كثيرا فمنهم من يقول أن ابنه محمد العسكري وكان طفلا قد دخل سردابا في دار أبيه بسامرا وأمه تنظر إليه فلم يخرج

إليها وسيظهر فيملأ الدنيا عدلا كما مُلئت جورا ويسمّونه المنتَظر والقـائم والمهدي والشيعة ينتظرون خروجه من ذلك السرداب. وهو الإمام الثـاني عشر.

ويقول غيرهم أن الحسن العسكري لم يعقب وأن سلسلة الأئمة انقطعت بوفاته وبعضهم يتولى أخاه جعفر بن علي.[21]

لم يسكت الذين يريدون الانتفاع من التشييع وتأثر جمهور المسلمين به بل وجهوا وجوههم شطر فرع آخر من فروع جعفر الصادق فقد كان لـه سبعة من الأولاد منهم عبد الله الأفطح ومحمد وموسى وإسماعيل.

فقال قوم أن الإمامة بعد جعفر لابنه عبد الله لأنه أسنّ أولاد الـصادق وزعم بعضهم أن جعفرا نص على إمامته بعده ومع ذلك فإنّه لم يعش بعد أبيه إلا سبعين يوما ولم يعقب ولدا ذكرا.

وقال قوم أن الإمامة من بعده لابنه محمد ورووا عنـه أنّـه قـال أن صاحبكم اسمه اسم نبيكم.

وقال قوم منهم الاثنا عشرية أن الإمامة من بعده لابنه موسـى ورووا عنه أنّه قال سابعكم قائمكم. واجتمع عليه جمهور الشيعة وساقوا الإمامـة في أولاده.

ومنهم من قال أن الإمام بعد جعفر ابنه إسماعيل. واختلفوا فمن قائل أنه عاش بعد أبيه ومن قائل أنه مات في حياة أبيه، وساقوا الإمامة من بعـد إلى ابنه محمد. ويُقال لهؤلاء الشيعة الإسماعيلية نسبة إلى إسـماعيل بـن جعفر الصادق وهم إمامية يتفقون مع الإمامية الاثني عشرية فـي المبـدأ العام للتشييع الإمامي وهو أنّه لا بد للناس من إمام معصوم يبلغهم الشريعة عن رسول الله، وأن الشريعة لا تؤخذ بالرأي. ويتفقون معهم على إمامـة الستة الأوائل من عليّ بن أبي طالب إلى جعفر الـصادق ومنـه يبتـدئ الاختلاف. فالإثنا عشرية ذهبوا إلى فرع موسـى الكـاظم والإسـماعيلية ذهبوا إلى فرع إسماعيل.

ولما كان الإمام في رأي الشيعة هو حجّة الله على خلقه وأنّه لا بد من وجوده ليؤدي ما نيط به من تبليغ الشريعة وأحكامها ورأوا أنه لم يقم أحد من ولد إسماعيل بالظهور للناس قالوا إن الإمام قد يكون مستورا مكتوما عن الناس خبره. وحينئذ لا بد له من نائب يكون هو الحجّة وهو القائم بالدعوة والتبليغ عنه، وساقوا الإمامة إلى محمد بن إسماعيل ثم إلى أولاده من بعده. وظهرت الدعوة إلى هذا المذهب عقب وفاة الحسن العسكري خاتمة أئمة الشيعة الاثني عشرية. وكانت لهم تعاليم دينية يسترون كثيرا منها عن الناس ومن ذلك قيل لهم الباطنيّة[22]

مما تقدم يظهر لنا أن المعارضة المتمثلة في الشيعة الإماميّة قد احتوتها الخلافة العباسية منذ زوّج المأمون ابنته من علي الرضا ثامن أئمة الشيعة الإمامية الذي مات بطريقة غامضة عام 202هجري فزوّج ابنته الثانية إلى محمد بن علي الإمام التاسع الذي مات بدوره في سن صغيرة في أول خلافة المعتصم. أما الإمام العاشر والحادي عشر فكانا محبوسين عليا عن القيام بأية حركة معارضة وهما في قبضة خلافة المعتصم والمتوكل والمعتز حتى انقرض هذا الفرع.

أما المعارضة الزيديّة فكانت تطالب بالخلافة للرضا من آل محمد أي للفرع الإمامي، وقد نكّل بها. ولما نجحت أخيرا في طبرستان أسست دولة دامت قرنا من الفرع الزيدي.

بقيت هناك تلك المعارضة التي التفت حول الفرع الإسماعيلي والتي كان لها دور كبير في الثورات التي تلت في العالم الإسلامي وفي تأسيس الدولة الفاطمية في مصر وقيام الحركة الباطنية بشكلها المتطرف.

حاول مؤرخون أن يربطوا بين الباطنية وبين نِحل ظهرت في البلاد الفارسية قبل الإسلام مثل الديصانية والمركونية ومذهب ماني وهي نِحل تقول بأصلية النور والظلمة كما أسلفنا.

قال ابن النديم في الفهرس:" قيل أن البرامكة بأسرها إلا محمد بن خالد بن برمك كانت على مذهب ماني. وكانوا يُعرفون بالزنادقة وهـم الـذين تجرد لهم المهدي ثم الهادي فقتل منهم عددا كبيرا. ومن رؤسائهم يـزدان بخت الذي قال له المأمون : لولا ما أعطيناك إياه من الأمن لكان لنا ولك شأن فقال يزدان: يا أمير المؤمنين نصيحتك مسموعة وقولك مقبول ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم فقال المأمون: أجل "

قال الذين يريدون تأكيد الصلة بين الديصانية والباطنية أن عبد الله بـن ميمون القداح (هو تلميذ جعفر الصادق كان يبث دعوته التي هيأت السبيل لثورة القرامطة) كان هو وأبوه ميمون ديصانيين وادعى عبد الله أنّه نبـي مدة طويلة. وكان يُظهر الشعابيذ ويذكر أن الأرض تطوى له فيمضي أين أحب في أقرب مدة. وكان يخبر بالأحداث والكائنات في البلاد الـشاسعة. وكان له مرتبون في مواضع يرغبهم ويحـسن إلـيهم ويعاونونـه علـى نواميسه ومعهم طيور يطلقونها من المواضع المتفرقة إلى الموضع الـذي فيه بيته فيخبر من حضره بما يكون. وصار إلى البصرة فنزل على قـوم من أولاد عقيل بن أبي طالب فحبس هناك وهرب إلى سلمية سوريا. ومن هناك ابتدأت الدعوة. ويزعم أصحاب هذا القول أن عبيد الله المهدي راس الدولة الفاطمية العبيدية هو من نسل هذا الرجل. وأن عبيد الله هو سـعيد بن الحسين بن عبد الله بن ميمون القداح وأنه تسمى بعبيـد الله لمـا ورد مصر.[23]

وجاء في كتاب المسيح في مفهوم معاصر عن كتـاب المهديـة فـي الإسلام[24]

عندما نزع جعفر الصادق الإمامة من ابنه الأكبر إسماعيل وجعلها في ابنه الثاني أنكر ذلك عليه بعض شيعته محتجين بأن الأئمـة معـصومون وبأنهم يأتون بترتيب إلهي مقدس فلا يجوز أن تُنـزع عـنهم الإمامـة. وعندهم أن الإمامة قد انتقلت من لإسماعيل عند وفاته قبل أبيـه بالمدينـة

سنة 143هجري إلى محمد المكتوم وأن محمـدا هـذا هـو أول الأئمـة المستورين الذين تفرقوا في البلاد مختفين لما لحقهم مـن الاضـطهادات السياسية. وبذلك نشأت فرقة الإسماعيلية وهي من أوسـع فـرق الـشيعة انتشارا وبخاصة في الهند وفارس.

وللإسماعيليين دعوة سرية فلسفية الحادية تشبه الدعوة التي كان يبثهـا عبد الله بن ميمون تلميذ جعفر الصادق والتـي هيـأت الـسبيل لثـورة القرامطة.

ويقول الطبري بأن فكرة العودة هي فكرة تسربت من عقائد اليهود إلى عقائد النصارى والمسلمين*

ولقد انتقلت إلى البيئة الإسلامية على يد اليهودي اليمني عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء، وهو يزعم أن روح الله تحل في كل نبي فإذا حان حينه انتقلت منه إلى من يليه. وأنها، من ثم، قد انتقلت من محمد إلى عليّ وانتقلت منه إلى أولاده وأحفاده وانتقلت إليها معها الإمامـة. وقـد نـشط هؤلاء بعد أن انهارت آمالهم في الخلافة، يبثون هذا المعتقد بـين النـاس حتى لا يقنطوا من عودة السلطان إليهم فينفضوا عنهم[25]

في صدر العهد العباسي ظهر التدوين وأُلفت الكتب وأخذ أهل الفرق في التعبير عن أفكارهم وكانت قد ظهرت فرقة المعتزلة. وكان واصـل بـن عطاء معبرا عنها 80- 131هجري وهي تقف في منزلة بين الاسـتطاعة والقدر ونُشر له كتاب المنزلة بين المنزلتين، وكتاب الفتيا وكتاب التوحيد.. وظهر كتاب لعمرو بن عبيد المعتزلي المتوفى سنة 142هجري في الـرد على القدرية؛ ولبعض متكلمي الشيعة مثل هشام بن الحكم المتـوفى بعـد نكبة البرامكة، وقد وله كتاب في الإمامة ردا على المعتزلة. وظهرت كتب الخوارج، وأُلفت كتب في العقائد لأهل السنّة، مثل كتـاب الفقـه الأكبـر

* فكرة العودة تعود إلى مذهب الحلول الهندي وتبنتها مذاهب البدع المنتمية إلى الديانات الموحدة

المنسوب لأبي حنيفة النعمان المتوفى سنة 150هجـري والفقـه الأكبـر المنسوب للشافعي المتوفى سنة 204هجري.

والأشعري هو أول من عرض لنصرة عقائد أهـل الـسنة بـالبراهين العقلية، وأخذ في مجادلة مخالفيهم، وخصوصا المعتزلة، اعتمادا على النقل والعقل وقد توفي سنة324هجري وقام بمثل ما قام به في زمنه الماتريدي أبو منصور محمد بن محمد بن محمود المتوفى سنة333هجري[26].

إن الصراع على الخلافة له شأن عظيم في تحول المعارضة **السياسية** إلى معارضة **مذهبية**. ولقد كانت الفلسفة منتشرة، فعصر المأمون كانـت حركة التعريب فيه ناشطة، وملأت الأرض المذاهب والفرق. كل واحـدة تريد أن تبدع رأيا وتنشئ مذهبا. وتجادل الناس فـي الفلـسفة اليونانيـة الوثنية، وفي المسيحية وفروعها، وفي الزردشتية وفرقها.

وكان يتصدى لهذه البدع شيوخ السنة ويردون عليها، ويقيمـون الحجـج والبراهين ضدها. فلا عجب أن تلوّن المعارضة مذهبها بمفاهيم تـساعدها على بلورة خط خاص بها، فالإسماعيلية قد استوردت كثيرا من العناصـر المسيحية والزردشتية في ديانتها.

كان هناك استياء شعبي يزداد استعارا، وهذا الاستياء كان ينتظر مـن يقوده، ولكن الفرع العلوي الإمامي كان تحت المراقبة الشديدة وقد شُـلّت فعاليته، فالتفّت المعارضة حول فرع آخر من الطالبيين أو حول أية جهـة تريد هدم خلافة بني العبّاس التي تفشّى ظلمها وبد عليها الانحلال. ويبدو أن حركة سرّية سياسية قامت كانت مضطرة لتحيط نفسها بتعـاليم دينيـة وغايتها رفع الظلم عن سواد الناس ولذلك كانت الظنون والشكوك تحـوم حولها.

ولكن أية دعوة لا يمكن لها أن تكسب أنصارا بدون قيادة من إمام أهل البيت يراه الناس أحق بالخلافة من بني العبّاس. وبما أن هؤلاء الأئمة من غير الفرع الإمامي وكانوا يخشون الملاحقة واضطروا للعمل السري، كان

لا بد أن يكون هناك بديل عنهم يتصل بالناس ويعمل فيوُضح النهار. ومثل هذا الوضع يحيط بالشكوك هوية قادة المعارضة وبغض النظر عمن يكون عبد الله بن ميمون القدّاح، أهو يعمل لنفسه أم كممثل ونائب لفرع مـن آل البيت هو الفرع الإسماعيلي، فقد كان يحمل لواء المعارضة ويستخدم كل الطرق لتنظيم الدعاة لحركته ويجوب الأمصار لهـذه الغايـة ولمعرفـة أوضاع البلاد الإسلامية. ويستخدم الطير الزاجل للاتصال والحصول على الأخبار، ويعتبر نفسه وريث التعاليم الإسلامية لا بالدم بل بـالروح. وأن لديه المقدرة والكفاءة لخوض الحروب أو لاستمالة الناس لخوضها ضـد خلافة عمّ استبدادها وخروجها عما توجبه الأوامر الشرعية من كتـاب الله وسنّة نبيه. وقد يكون وراء الداعي إمام متستر أو لا يكون. فالمعارضـة لنظام حكم مطلق شيء طبيعي، وقد استمرت طوال حكم بني عباس الذي دام أكثر من خمسمائة عام فكان الحكم يتهم الجماعـات الخارجـة عليـه بالزندقة، وفقد روح التسامح الذي عُرف به الإسلام في أوائل عهده.

كان هناك من يتشدد في العقوبة لا من أجل اجتهادات المذاهب بل لمـا تحمله من رغبة الخروج، أو موالاة العلويين المنافسين في الحكم.

" المعروف عن المهدي أنّه كان مغرى بالزنادقة الذين يثرفع إليه أمـرهم فكان دائما يعاقبهم بالقتل، ولذلك كانت هذه في زمنه وسيلة يتشفى بها من يحب أن يتشفى من عدو أو خصم. والذي أغراه بذلك ما كان مـن فتنـة **المقنع الخراساني**. كان من إحدى قرى مرد وكان يقول بتناسـخ الأرواح فاستغوى بشرا كثيرا وصار إلى ما وراء النهر فوجه المهدي لقتاله عـدة من القواد فيهم معاذ بن مسلم وهو يومئذ على خراسان. واسـتعدّ المقنـع للحصار في قلعة كسن وحاصرته قوات المهدي بقلعته، ولما اشـتد عليـه الحصار وأحس بالهلكة شرب سما وأسقاه نساءه وأهلـه فمـات ومـاتوا جميعا[27]

إن المهدي كان يسير على خطاه الرشيد الذي نكّل بالبرامكـة وكـذلك الأمين حتى جاء عهد المأمون الذي وقف من الصراع العربي الفارسـي موقفا متفهّما ثم جرفه رأي حاشيته في أن لا يفرط في حكم بني العبـاس لصالح بني عليّ. كان عهده هو أوج قوة الخلافة العباسية وبدء انهيارها. يقول جيبون[28]

بدأت أعراض التمرد الأولى تظهر في إفريقية فإبراهيم بن أغلب قائـد هارون الرشيد الشجاع الصارم أسس مملكة **الأغالبة** التي تحمـل اسـمه وسلطته (تغاضى هارون الرشيد عن هذه المملكـة لتقـوم فـي وجـه الأدارسة). إن سياسة الخلفاء البليدة قد تعامت عن هذا العدوان والخسارة، ولم تلاحق إلا مؤسس الأدارسة الذين شيدوا مملكة في مدينة فـز علـى شواطئ المحيط الغربي واغتالته بالسم. وفي الشرق كانت هنـاك سـلالة **الطاهريين**، نسبة إلى طاهر الذي خدم بحماس وشجاعة قضية المأمون في الحروب الأهلية التي وقعت بين ولدي هارون. ولقد أُرسل ليحكم شواطئ نهر جيجون؛ وكان استقلال خلفائه الذين استولوا على السلطة في خراسان حتى الجيل الرابع قد تلطف بتواضعهم وسلوكهم المحترم وسعادة رعاياهم وأمن حدودهم. وظهر يعقوب بن ليث، وهو أحد المغامرين، الذي تـرك تجارته بالمجامر، وقاد جيشا لصالح الطاهريين في البداية ثـم لـصالحه، وأخضع فارس كلها وهدد الخلافة العباسية. وفي مـسيرته إلـى بغـداد أصابته حمّى، وحين أوشك على الهلاك قال لرسول الخليفة الـذي أتـى ليفاوضه:" إذا مت فإن سيدك سيتخلص من مخاوفه، وإذا عشت فعهدا إنني إذا هُزمت أعود دون أسف إلى موطن شبابي." ولم يكن قربه على الطاولة إلا خنجر دون غمد وقطعو من الخبز الأسود وحزمة من الثوم. وعاجلـه الموت فارتاح الخليفة، ودفع بسخاء لأخيه عمرو حتى يتراجع إلى قصور شيراز وأصفهان. كان العباسيون أضعف من أن ينازلوا، وأكثر عجرفـة

من ان يصفحوا ، فاستدعوا **السامانيين*** الذين اخترقوا نهر جيجون بعشرة آلاف فارس، وكانوا من الفقر بحيث صنعوا ركابهم من الخشب؛ وكـانوا شجعانا فتغلبوا على جيش الليثي الذي كان أضعافهم ثماني مرات. وأرسل الأسير عمرو مكبلا بالسلاسل إلى خليفة بغداد.وبينمـا كـان الـسامانيون المنتصرون فرحين في أن يرثوا بلاد جيجون وخراسان عـادت ممالـك فارس إلى طاعة الخليفة. أما إقليما سورية ومصر فقد تمزقا مرتين علـى يد المماليك الأتراك من سلالة **طولون وأخشيد**، وكانوا في دينهم وسلوكهم لا يختلفون عن البرابرة. ظهروا من الفرق الشقاقية في القصر إلى حكـم الأقاليم وإلى عرش مستقل؛ وأصبحت أسماؤهم مـشهورة ومخيفـة فـي زمانهم. ولكن مؤسسي هاتين السلالتين اعترفا بالكلام والأفعـال بغـرور السلطة وطموحاتها. الأول على فراش الموت استجار برحمـة الله طالبـا العفو عن خطاياه لأنه كان جاهلا محدودية سلطته، والثاني كان يخفي وهم بين أربعمائة ألف جندي من أتباعه عن كل عين المكان الذي سنام فيـه. وكان أبناء هاتين السلالتين متمرسين بكل الموبقات شـأن أولاد الملـوك. واستطاع العباسيون أن يستردوا مصر وسوريا خلال فترة دامت ثلاثـين عاما. وفي فترة التقهقر الذي لحق الخلافة كانت المدن الهامة في الـشمال السوري كالموصل وحلب يحتلها أمراء عرب من قبيلة حمـدان. وكـان الشعراء المرتزقون الزلقوا اللسان يتمدّحون بكرمهم وشجاعتهم وفصاحتهم وجمالهم رغم أن قصة صعودهم إلى الحكم كانت حافلة بمـشاهد الغـدر والجريمة وقتل الآباء. وفي نفس تلك الفترة استولى البويهيون عنوة علـى مملكة فارس بسيوف ثلاثة أخوة ومدوا سلطتهم تحت شعارات مختلفة من بحر الخزر إلى المحيط. وتحت حكمهم استردت فارس لغتها وحُرم العرب بعد ثلاثمائة وأربع سنين من موت الرسول من صولجان الشرق[29]

* من سامان، قرية في إيران (بلخ) جدهم الإعلى مانخودات نشأ في قرية سامان أيام الرشيد، ثم أصبحوا ملوكا على ايران. ازدهرت في زمانهم الآداب الفارسية بفضل الشاعرين رودكي وفردوسي.

نرى من هذا الموجز أن السيادة الروحية والدنيوية للعباسيين انتُهكـت في الشرق وفي الغرب. فقبل البويهيين كان هناك الحكـم الزيـدي فـي طبرستان الذي دام من 250-355هجري وفي الغرب الأدارسة. والتمرد يعصف بالدولة العباسية، والمعارضة الملتفة حول الخط الإسماعيلي تنشئ حركتها السرية وتظهر لها منظمة معتدلة مركزها قريـة سـلمية قـرب حمص وهي موئل الدولة الفاطمية العبيدية ومجمع أسرارها. والثانية قـوة فوضوية كان مركزها أول ظهورها في العراق وهي القرامطة.

يقول المؤرخون السنة أنه قام دعي في آل عليّ لا يعرف الطالبيون له نسبا ولا رحما يدلي بدلوه في الدولة لينال منا حظها لنفسه وهـو علـوي البصرة أو صاحب الزنج الذي زعم أنّه علي بن محمد بن أحمد بن علـيّ بن عيسى بن زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، وأصله من عبد القيسي من ربيعة. ورد البحرين سنة249هجري فدعا الناس بهجـر إلى طاعته فاتبعه قوم وأباه آخرون فوُجدت فتنة بين الفريقين فانتقل عنهم إلى حي من تميم فأقام بينهم وقد عظم مقامه بين أهل البحرين حتى أحلّوه من أنفسهم محل النبي وجبوا له الخراج هناك وقاتلوا أصحاب السلطان. ثم مضى الدعي مع من اتبعه حتى صار إلى مدينة السلام فأقام بهـا حـولا يستميل إليه الناس سرا. ولما عُزل عامل البصرة محمد بن رجاء عاد إليها سنة 255هجري ونزل مع جماعته بقصر قريب منها وهناك خطرت لـه فكرة غريبة وهي الاستعانة بالعبيد الذين كانوا يعملون بتلـك النـواحي، ووعدهم مع الحرّية بالسيادة على مالكي رقابهم وأخذ منهم غلامـا اسـمه ريحان بن صالح ووعده أن يكون قائدا وأمره أن يحتـال للعبيـد الـذين يعرفهم حتى يجيبوه إلى نحلته ويتركوا سادتهم وأعمالهم فاجتمع إليه كثير منهم فخطب فيهم ومنّاهم ووعدهم أن يقودهم ويرئسهم ويملكهم الأموال.

وكان هناك خمسة عشر ألف غلام فحذّر الناس على غلمانهم ولم يـزل الرجل يحتال لجمع هؤلاء الزنوج. وأخذ ينهب الأمـوال ويـستكثر مـن

الرجال. وأرسلت عليه جيوش من البصرة فهزمها ثم اتجه نحو البـصرة فقابلتهم جنود كثيرة من قوات السلطة فانتصر عليها وقتـل منهـا مقتلـة عظيمة. وقوي أمره كثيرا وحل الرعب في قلوب أهل البصرة وكتبوا إلى السلطان بخبره والخليفة يومئذ المهتدي بالله. وأقام قرب البـصرة ينهـب المراكب الماخرة.

وفي رجب سنة 256هجري أحرق مدينة الأبلة واستسلم له أهل عبادان فأخذ من كان بها من العبيد وضمّهم إلى جنده وفرّق فيهم السلاح. ومـن هناك سيّر عسكرا إلى الأهواز فاستولى عليها وأسر عامل الخـراج بهـا فزاد أهل البصرة رعبا. وأرسل السلطان إلى الدعي جنودا فكان نـصيبها الفشل.

وفي سنة 257هجري أوقع بأهل البصرة وقعة هائلة قتل فيها من أهل البصرة عدد عظيم وخربت أكثر مبانيها.

وكان كل يوم يكتسب قوة جديدة بما يُضاف إليه من العبيد وما يُتاح له من النصر المتتابع حتى استفحل أمره فحشد له قائد جيوش الدولة العباسية أبو أحمد الموفق الجموع وتولى هو قيادتها، وعبأ جندا كثير لعدد تام العدّة وكانت لأبي أحمد معه وقائع هائلة استمرت أعواما حتى انتـصر آخـر الأمر وهزم الزنوج وقتل الدعي في أواخر سنة 270هجري[30]

القرامطة

في 277هجري ادعى واعظ عربي في جوار الكوفة اسمه **قرمط** بأنّـه المرشد والقائد والكلمة والروح القدس والجمل والمبشر بالمـسيح الـذي تحدث معه وهو في شكل إنسان. وقال بأنّه ممثل محمد بن علي (محمـد المنتظر) ، ويوحنا المعمدان، وجبريل الملاك. وفي كتابه الصوفي شـرح تعاليم القرآن بشكل أكثر روحانية؛ ولقد تساهل فـي الواجبـات الدينيـة كالوضوء والصيام والحج؛ وسمح بتناول الخمـر والأطعمـة المحرّمـة؛ وغذى حماس أتباعه برفع الصلوات إلى خمسين. لقد أثار هياج وعطالـة

الجمهور الريفي انتباه سلطات الكوفة؛ وساعد اضطهاد رجل على نمو طائفة جديدة. وأصبح اسم النبي الجديد أكبر قدرا عندما زال من الوجود. وتفرق أتباعه الاثنا عشر بين قبائل البدو وهم جنس من الرجال، كما يقول أبو الفدا، محرومون من العقل والدين. وهدد نجاح دعوتهم الجزيرة العربية بثورة جديدة. وكان القرامطة متهيئين للتمرد لأنهم كانوا يتبرؤون من آل عباس ويكرهون المواكب الفخمة لخلفاء بغداد. كانوا قابلين للتنظيم، إذ أقسموا على الخضوع التام لإمامهم الذي استجاب لنداء الله والشعب في قيادتهم. وبدل ضريبة العشر الشرعية كان يطالبهم بخمس ثروتهم وغنائمهم. واتحد إخوة الدعوة وتخفوا بقسم من السرية[31]

وتقول المصادر العربية أنّه ظهر في أواخر دولة المعتمد رجل بسواد الكوفة قدم إليها من نواحي خوزستان وكان يظهر الزهد والتقشف ويسف الخوص ويأكل من كسبه ويكثر الصلاة فأقام على ذلك مدة وأعلم الناس أنه يدعو إلى إمام من البيت. وكان يزداد في أعين الناس نبلا بما يظهره من الزهد. ثم مرض، وكان في القرية رجل يلقبه أهلها بكرمية لحمرة عينيه وهو بالنبطية فحمل هذا العليل إلى منزله، ووصى أهله بالإشراف عليه والعناية به ولم يزل مقيما عنده حتى برأ فكان كرمية يدعو الناس إلى مذهبه حتى أجابه جمع كثير من الأكرة. وكان يأخذ من كل من دخل في مذهبه دينارا يزعم أنه للإمام. واتخذ من أهل القرية نقباء اثني عشر فاشتغل الزراع هناك عن أعمالهم بما رسم لهممن الصلوات الكثيرة التي أخبرهم أنها مفروضة عليهم.

كان **للهيصم** عامل الخليفة في تلك النواحي ضياع فوقف على تقصير أكرته في العمارة فسأل عن ذلك فعلم بخبر الرجل، فجيء به وحُبس. وأراد الهيصم قتله لولا أن جاريته كانت قد أطلقته سرا. وأشيع بين الناس أنّه لا ينال بسوء فعظم في أعينهم، ولكنه خاف على نفسه وانطلق إلى الشام، وانتحل اسم من آواه وهو **كرميّة** ثم خفف فقيل **قرمط.**

نشأ مذهب القرامطة في سواد الكوفة والسلطان لاه عنهم حتى قويـت شوكتهم، وكان ما كان من الكوارث العظمى التي حلت بالأمّة الإسـلامية على أيديهم[32]

وبعد صراع دموي سادوا في البحرين، على طول الخليج الفارسي، وقد خضعت قبائل الصحراء لسيف أبي سعيد الجنابي وابنه أبي طـاهر مـن بعده. وجنابة من سواحل فارس يدخل غليها في المراكب في خليج البحـر الفارسي، وبين المدينة والبحر ثلاثة أميال وقبالتها جزيرة خرج. وكان أبو سعيد دقاقا فنفي عن جنابة فخرج إلى البحرين وأقام بها تـاجرا وجعـل يستميل العرب إلى نحلته حتى استجاب له أهل البحرين. واستطاع هؤلاء الثائرون أن يجندوا مائة وسبعة آلاف لحركتهم. وارتاح مرتزقة الخليفـة لتقدم عدو لا يطلب ولا يقبل رحمة أو هوادة. وكان الاختلاف بين الفئتين في المجالدة. والصبر يعبر عن التغير الذي أحدثتـه ثلاثـة قـرون مـن الازدهار في صفات العرب. لقد هزمت قوات السلطة فـي كـل عمليـة وسقطت مدن كالرقة وبعلبك والكوفة والبصرة ونُهبـت. وهلعـت بغـداد وارتعد الخليفة وراء ستائر قصره. وتقدم أبو طاهر في غارة إلى أبـواب العاصمة عبر دجلة ومعه خمسمائة فارس. فأمر المقتدر أن تُكسر الجسور وأن يُؤتى بأبي طاهر أو رأسه إلى أمير المؤمنين. ولقد حذر قائد الخليفـة أبا طاهر خوفا منه أو رحمة به ناصحا إياه بالفرار، ولكن القرمطي قـال للرسول: " إن سيدك على رأس ثلاثين ألفا من العسكر، ولكن ليس فـيهم مثل هؤلاء الرجال الثلاثة." وفي تلك اللحظة التفت إلى ثلاث من صحبه وأمر الأول أن يغرز خنجرا في صدره، والثاني أن يقفز إلى دجلة والثالث أن يرمي بنفسه إلى هوّة، فأطاعوا دون احتجاج. وأردف الإمـام قـائلا:" خبّر بما شاهدت، لن يمضي المساء حتى يكون قائدك مكبلا مع كلابـي." وقبل أن يأتي المساء هوجم المعسكر ونُفّذ التهديد. وقاموا بـسلب قافلـة حجاج، وترك عشرون ألف مسلم يموتون جوعا وعطشا علـى الرمـال

المحرقة. وبعد عام سمح للحجاج أن يتقدموا دون اعتراض، ولكـن أبـا طاهر هاجم المدينة المقدسة، وأعمل السيف في ثلاثين ألفا من المـواطنين والغرباء، وتلوّثت الباحات بدفن ثلاثة آلاف جثة. وفاض بئر زمزم بالدم؛ وخلعت المسكبة الذهبية من مكانها، ومُزّق ستار الكعبة ووزعت مزقـه؛ وحمل الحجر الأسود في موكب النصر إلى عاصـمة القرامطـة. وبعـد انتهاك المقدسات وإظهار قسوة الجانب استمروا في الإغارة علـى تخـوم العراق وسوريا ومصر. ولكن المبدأ الحيوي الذي أثار حماسهم قـد ذوى حتى الجذور. وقد أعاد تورعهم الحجر المقدّس إلى الكعبة، وفتح طريـق الحج إلى مكة؛ ولا حاجة لنعرف إلى أية فرق قد تحطموا وبأية سـيوف هُزموا حتى أُبيدوا[33]

وقصّة أبي الفوارس القرمطي الذي أُسر وجيء به إلى المعتضد تظهر جوهر ثورتهم. سأله المعتضد:" هل تزعمون أن روح الله تعـالى وأرواح أنبيائه تحل في أجسادكم فتعصمكم من الزلل وتوفقكم لـصالح العمـل " ؟ فقال : "يا هذا إن حلت روح الله فينا فما يضرّك وإن حلت روح إبليس فما ينفعك فلا تسأل عما لا يعنيك وسل عما يخصّك." فقال:" ما تقـول فيمـا يخصّني؟ " قال:" أقول أن رسول الله مات وأبوكم العباس حي فهل طلـب الخلافة أم هل بايعه أحد من الصحابة على ذلك؟ ثـم مـات أبـو بكـر فاستخلف عمر وهو يرى موضع العباس ولم يوصي إليه ولا أدخله فـيهم فبماذا تستحقون أنتم الخلافة وقد اتفق الصحابة على دفع جـدّك عنهـا؟ " فأمر به المعتضد فقتل.

ولكن جيبون يخطئ القول بأن ثورة القرامطة قد هُزمت وأُبيـدت دون أن تترك أثرا. كانت تلك الثورة من أحد الأسباب الهامّة لانهيار ثم سقوط الخلافة العباسية. وتحول المعارضة السياسية إلـى معارضـة مذهبيـة، وانقسام العالم الإسلامي قوميّا إلى سنّة وشيعة: الأتراك إلى جانب الـسنّة

والفرس إلى جانب الشيعة؛ ووصول الشيعة إلى الحكم في معظم الدول الإسلامية.

المماليك الأتراك في الخلافة العباسية

كان المملوك يُشرى وهو صغير من بلدان لا تزال العبودية فيها قائمة كبلاد الترك والشركس والقفقاس وأواسط آسيا وروسيا، وكان المملوك يُعد إن كان ذكرا ليصبح فارسا فيعوض عن النقص في القوات العربية والفارسية التي تشكلت في أوائل الفتوحات الإسلامية، وتعد المملوكة لخدمة القصور. وكانت هذه الفئة الاجتماعية تثقف ثقافة خاصة لا تتاح لأبناء جماهير المسلمين، كتعلم القرآن والأدب والتاريخ والموسيقى ومختلف فنون الحرب. وبسبب هذه المؤهلات المتميزة كان المماليك يصلون إلى أعلى الرتب العسكرية فيسيطرون بالتالي على الدولة ويشكلون طبقة حاكمة عسكرية[34]

كثرت العناصر الغريبة عن الأمة العربية في عهد المأمون في جيش الدولة العباسية. فلما جاء المعتصم أربى على أسلافه في ذلك فقد كان يغلب عليه من أخلاق الرجال الشجاعة والميل إلى الشجعان. رأى أن من ببغداد من جنود الأبناء لا يوثق بهم لكثرة اضطرابهم وقيامهم على الخلفاء. ورأى ما للأتراك من شدة البأس والنجدة فأراد أن يكون منهم جيش يستعزّ به على هؤلاء الأبناء وبرغم أنوفهم. فاستكثر من غلمان الأتراك وأحضر منهم عددا عظيما فوق ما كان منهم في عهد أخيه المأمون وأسكنهم بغداد واستغنى عن جيوش العرب بالمرّة وأسقطهم كافة من الدواوين بحيث لم يبق مرتزق لعهده إلا من كان من الأتراك أو الأبناء. إلا أنه اصطنع قوما من مصر واليمن وقيس وسماهم **المغاربة**. وأتى بكثير من أهل فرغانة وأشروسنة فكثر جيشه. وكان هؤلاء القوم عجما جفاة يركبون الدواب فيتراكضون في طرق بغداد وشوارعها فيصدمون الرجل والمرأة والصبي فيأخذهم الأبناء فينكسونهم عن دوابهم

ويجرحون بعضهم فربما هلك من الجراح. فشكا الأتراك ذلك إلى المعتصم وتأذت به العامة فكان ذلك سببا لتفكيره في بناء حاضرة جديدة له ولهـذا الجيش فاختُطت سامرا.

وكان المعتصم يُلبس هذه الجنود أنواع الـديباج والمنـاطق المذهبـة والحلية المذهبة ومميّزهم بالزي عن سائر جنوده ، واشـتهر مـنهم قـواد اصطنعهم المعتصم ورفع من أقدارهم وجعـل بيـدهم مـستقبل الخلافـة الإسلامية.

في عهد الواثق توطّدت قدم المماليك الذين اصطنعهم المعتصم وصـار رؤساء الأتراك أصحاب نفوذ عظيم. وقد قام قواد الأتراك بأعظم الأعمال الحربية حتى في جزيرة العرب نفسها عندما كان يقع خروج على الدولـة أو تتقاتل القبائل فيما بينها.

وزاد الأتراك نفوذا وقوة واستبدادا بأموال الخلافة وإدارتها وجيشها مع تقادم عهدهم، وقد أحس المتوكل بتوغلهم وأحب أن يُضعف شوكتهم. وبدأ بإيتاخ الذي كان له الجيش والمغاربة والأتراك والموالي والبريد والحجابة ودار الخلافة فسجنه حتى مات في السجن بسبب قسوة المعاملة لـه سـنة 235هجري.

وكره المتوكل حاضرة خلافته بسبب كرهه للأتراك ورؤسائهم فاختـار سنة 243هجري أن يجعل دمشق حاضرته فشخص إليها ونقـل دواويـن الملك، فتحرك الأتراك يشاغبون عليه لأنهم ظنوا أن المتوكـل يريـد أن يستعين بسلطان العرب عليهم، فأمر المتوكل لهم بمـا أرضـاهم. ولكـن المتوكل لم يرتح إلى دمشق فعاد إلى سامرا. ويظهر أن الأتراك هم الذين حملوه على العودة. وبني قرب سامرا مدينة لم تتم. ولما انتقل إليها أُشـيع بأنه عازم على الفتك بقواد الأتراك ووجوههم ولكن لم يتأت لـه ذلـك إذ عاجلوه بالقتل قبل أن يظفر بهم، مستعينين بذلك بابنه المنتصر.

زادت قوة الأتراك في الدولة على قوتهم بقتل المتوكل لأن أيديهم امتدت إلى حياة الخلفاء فقتلوا خليفة وساقوا الخلافة إلى خليفة فأنشبوا أظفـارهم في جسم الدولة. ولم يكن هناك من طريقة للتخلص منهم لما دب في قلوب الخلفاء من الهيبة لهم ورعاية جانبهم وعندما جاؤوا بمن يخـافهم حـسد بعضهم بعضا واقتتلوا فيما بينهم، كل يريد مبايعة خليفة على هواه يقـوى به وبقيت الأحوال على هذا المنوال والخلفاء ألعوبة بأيدي قواد الجيش[35].

ذكرنا سابقا أن المتوكل كان يكره العلويين كرها شديدا، وأنه هدم قبـر الحسين بن علي بكربلاء، وكان يلاحق الشيعة وينكل بهم. وكان الـشيعة الإماميون وآخر أئمتهم الحسن العسكري وهو الحادي عشر الـذي تـولى الإمامة في عهد المعتز ومات في 260هجري في عهد المعتمد على الله، قد فقدوا الأمل في أن يستمر الخط الأمامي الذي يلتفون حولـه إذ مـات الإمام ولم يعقب، أو أعقب ولسبب ما لم يعش خلفه، ولكن نجاح الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي، وهو من الفرع الزيدي في الاستيلاء على طبرستان وإقامة دولة شيعية هناك، وقـد نشط الآمال في دعوة مماثلة تقوم في الجبال السورية اللبنانية. فظهر بين الشيعة رجل يسمى **محمد بن نصير النميري** فأجرى تعديلا في المـذهب ونشر دعوته هناك فسمي من أيّده نصيريون، وبقي اسم هذا الفريق هكـذا إلى سنة1920ميلادي حيث أُبدل باسم علويين.

وسنجد فيما بعد أنه قام بتأييد هذا الفريق بختيار ابن معز الدولة البويهي الذي استولى على العراق كما استولى أخوه على فارس تحت راية شيعية.

مصر والخلافة العباسية

منذ عهد عمرو حتى 356هجري كانت مصر تُحكم مـن قبـل حكـام يرسلون من عاصمة الخلافة. وخلال هذه الفترة توالى علـى مـصر 111 حاكما، وقليلا ما كان يتردد حكم أحدهم مـرتين كعمـرو. وكـان تغيـر المناصب يؤدي إلى تغيير اتجاه الأمور في البلاد. وكان 21 حاكما ممـن

نصبوا خلال الفترة الأموية يضمرون الولاء لحكومة دمشق ما عدا واحدا هو عبد الله ابن الزبير، ابن أخي عائشة زوجة الرسول الذي قارع الأمويين دون جدوى فطرده الخليفة مروان الأول من منصبه.

إن ظاهرة مستمرة في الحكم العربي هو غياب التخطيط الاقتصادي والمالي. فمثلا أمر المنصور بإغلاق قنال البحر الأحمر الذي فتحه عمرو لأن الخليفة رغب أن يمنع القمح عن المدينة المنورة حيث كان عنه ثائرا عليه. وبقي الأمر كذلك حتى في عهد هارون الرشيد والمكتفي فقاما بمحاولة فتح القنال دون جدوى. وهناك خصلة أخرى بقيت حتى نهاية الخلافة العباسية وهي الغيرة الجنونية التي كان الخلفاء ينظرون بها إلى أي حاكم إقليمي يبلغ شأوا عسكريا أو إداريا ويكون محبوبا من قبل السكان.

في البداية كانت النشاطات تقتصر على جمع الضرائب وتعهد الحاميات وكان العرب يعيشون في معزل عن الناس، ويُمنعون من امتلاك الأرض. ولم يكن الحكام المسلمون يُجبرون القبط على التحول عن دينهم. وكانت السياسة الإسلامية الكلاسيكية هي التسامح مع الأديان الأخرى.وقد تبنى المسلمون نظام الضرائب البيزنطي، وكذلك التقسيمات الإدارية. ومع مرور الأيام تغيرت خصائص حكم العرب. وسار نظام يجعل المسلمين والمسيحيين يدفعون ضريبة عن الأرض، وتدفع الطوائف غير المسلمة ضريبة شخصية أيضا. واستمروا في عزل المسيحيين التدريجي من الوظائف العامة. ولقد استخدمت اللغة العربية وأصبحت عام 94هجري اللغة الرسمية في الدوائر الحكومية بالرغم أن اليونانية لغة الإدارة القديمة بقيت تُستخدم مدة أطول.

إن الفتح الإسلامي لمصر حوّلها من إقليم تابع للقوى الغربية إلى منطقة مركزية للإسلام. وقد جعل المسلمين ينطلقون منها ويمدون نفوذهم على

طول الشاطئ الإفريقي الشمالي إلى إسبانيا وعلى طول نهر النيـل إلـى النوبة.

إن تمركز الخلافة العباسية ما بين النهرين بعيدا عـن مـصر جعـل الرقابة عليها صعبة. وكان الحكام العباسيون يتبدلون مرارا أكثر مما كان في عهد الأمويين؛ وكانت الحكومة المركزية لا تثق بعمّالها وتحرص على أن لا يطول بقاؤهم فيمتلكوا الخبرة أو يصبحوا محبوبين من السكان. وقد شهد عهد هارون الرشيد الذي دام 23 عاما 24 حاكما على مصر.وقد ثار القبط عدة مرات ضد الحكومة ليس لسبب ديني ولكن بسبب الشعور بقلـة العدالة بالنسبة للضرائب، واشتركوا مع المسلمين العرب في ثورة هـددت السلطة العباسية فسارع الخليفة المأمون لزيارة مصر عام 240هجـري بينما كان قائده أفشين يسحق المتمردين، ويذبح السجناء الأقبـاط ويبيـع أسرهم رقيقا.

وعندما ضعف حكم العرب في الخلافة العباسية، وأصبحت تعتمد فـي شؤونها على قادة عسكريين من غير العرب، وقعت مصر فـي بـراثنهم وأصبحت تُعامل كإقطاعية لهم. وكان أولهم **عبد الله بن طاهر** وهو فارسي وأحد قادة المأمون الذي أصبح حاكما على مصر منـذ وبا عـن الخليفـة. وأصبحت مصر بمواردها الغنية مجالا لنهب الحكام غير العرب الذين لم يكن همّهم تحسين اقتصاد البلاد على المدى الطويل. إن الأتـراك الـذين أصبحوا عنصرا قويا ومسيطرا في الخلافة العباسية منذ عهد المعتصم لم يكونوا أتراكا بالمعنى الحرفي للكلمة ولكنهم كانوا جنودا يتكلمون التركية، وهم مماليك من قوميات مختلفة دخلوا كعسكريين في خدمة الخلفاء.

إن الروابط الضعيفة بين الحكم المركزي في بغـداد وبـاقي الأقـاليم الإسلامية البعيدة الواقعة تحت سيطرة العباسيين أوقعت دار الخلافة فـي فوضى. وأخذت الأقاليم البعيدة في الاستقلال، وانفكـت إسـبانيا وشـمال لإفريقيا بدون صعوبة كبرى عن الخلافة وجاء دور مـصر. ففـي عـام

256هجري أُرسل **أحمد بن طولون** وهو ابن تركي من فرغانا إلى مصر ليكون في معيّة الحاكم، فلم يلبث أن استبد بالأمر وأقام نفسه ملكـا علـى مصر، وتجاهل الخليفة المعتمد الذي لا يكن له الولاء، ورفض رجاءه في أن يرسل إليه خراج مصر. ونتيجة لهذا بقيت الإيـرادات الفائـضة فـي البلاد؛ ومن الثروة المتراكمة استطاع أحمد وخلفاؤه أن يعـززوا القـوات المسلحة، ويطوروا الزراعة، ويجملوا القاهرة بالأبنية العامة، ومنها جامع ابن طولون الكبير الذي بقي حتى اليوم.

ولكن الأسرة الطولونية كانت تقوم على أساس ضعيف، وتعتمـد فـي وجودها على طبقة عسكرية من الأتراك والزنوج لأن العرب قد توقفـوا منذ زمن طويل عن الاندراج في صفوف الجيش. وفي عام 265هجـري استطاع ابن طولون بسهولة أن يحتل سوريا وبقيت هذه الوحدة بين مصر وسوريا حتى الاحتلال العثماني عام 905 هجري بالرغم من سرعة زوال الحكم الطولوني. فهذه الأسرة التي لم يكن لها جذور في مصر وسوريا ما لبثت أن أصابها الانحلال. **فخمارويه بن أحمد** وخليفته كان متهتكا ومـن خلفه لم يكن جديرا بالحكم. وارتدت الدولة السورية المصرية إلى الخلافة في 293هجري وأصبحت تحت سلطة بغداد.

كانت الأسرة التي تلتها (تدعى أنها من نسل ملوك فرغانة) من أصل يعود إلى أواسط آسيا، وهم **الإخشيديون**. وقد نجحوا في ضم مكة والمدينة إلى سورية ضمن حكمهم. ولكن هـذه الأسـرة كانـت قـصيرة الأجـل ومؤسسها هو الوحيد ذو الكفاءة. أما ولداه اللذان خلفاه في الحكـم فكانـا مجرد دمى بيد وزير مشهور هو **أبو المسك كافور** الذي كان عبدا أسـود من أثيوبيا أو السودان. ولقد أظهر كافور كفاءة عالية وفي 328هجـري احتل حلب لصالح سيده. وعلى فراش الموت رجاه الإخشيدي أن يـصبح وصيا على أحد ولديه. فكان الحاكم الحقيقي لهذا الولد ولأخيه من بعـده. وكان كافور ذا ثقافة عالية محبا للأدباء والشعراء، بل إن **المتنبي** كان من

أصدقائه قبل أن ينقلب عليه ويصبح هاجيا له بعد أن خيب أمله في إقطاعه الأملاك الواسعة التي يحلم بها. وقد بقيت دولة الإخـشيديين مـن 323-357هجري حتى قضى عليها الفاطميون، ولاحـق الحمـدانيون الـشيعة الحكام الإخشيديين من شمالي سوريا وقضوا عليهم.

وعندما استولى **الفاطميون** على السلطة في مصر وكان جيشهم يعتمـد على مماليك من البربر والزنوج بعد تحريرهم كانت مـصر قـد وهنـت وأصابتها المجاعة بسبب فيضانات النيل المتتالية وبسبب عدم كفاءة الحكام السابقين في الشؤون الاقتصادية[36]

حكم بني بويه الشيعي في فارس والعراق

أدى التنافس بين القادة الترك فرسان خليفة بغداد الذين استبدوا بالسلطة حتى أصبح الخلفاء ألعوبة بين أيديهم إلى استدعاء بني بويـه المتـشيعين ليناصروا الخليفة. وكان هؤلاء من الجند المرتزقة الذين ظهروا بين قبائل الديالمة (نسبة للديلم شرق إيران) وهم من أصل فارسي كانوا يقيمون في الجنوب الغربي من بحر قزوين. وبقوا على وثنيتهم إذ لم يتمكن الأمويون والعباسيون من فتح بلادهم. ثم توغلت الدعوة الشيعية بينهم وتحولوا إلـى الإسلام في أواخر القرن الثالث الهجري. وكان إلى جوارهم كمـا أسـلفنا إقليم طبرستان الذي حكمه الشيعة الزيديون بين 250-355هجري. وقـد حاربوا تحت لواء الشيعة وكونوا دويلات قوية في إيران ونواحيها.

ودخل **أحمد بن بويه** إلى بغداد سنة 334هجري بدعوة من **المـستكفي** (وأحمد هو أصغر الأخوة الثلاثة البويهيين) وتلقب **بمعز الدولة** ولم يلبث أن عزل الخليفة المستكفي، وولى بدله المطيع لله. فكان بنـو بويـه مـع الخلفاء العباسيين أكثر استبدادا من القادة الترك السابقين، ذلك لأنهم كشيعة لم يكن عندهم ما يحملهم على الخضوع للخلفاء الـذين يـدينون بمـذهب السنّة، فكانوا يعزلونهم ويسملون عيونهم أو يقتلونهم، كذلك أصبح الواحـد منهم يسك العملة باسم شاهنشاه (أي ملك الملوك) ويُخطـب لـه علـى

المنابر، ويُقرن اسمه باسم الخليفة العباسي في خطب المساجد وتُـضرب له الدفوف أمام قصره في الضحى والعشي وهذا تكريم لم يكن يحظى بـه غير الخليفة من قبل[37]

الخلافة العباسية تحت سلطان آل بويه

يبتدئ هذا الدور من 334-447هجري تولى الخلافة فيه خمسة خلفاء وهم **المستكفي والمطيع والطائع والقادر والقائم.**

تاريخ هذا الدور يرتبط بتاريخ آل بويه الديلميين الذين كانوا أصـحاب النفوذ الحقيقي والسلطان الفعلي في العراق. والديلم الواقعة فـي الجنـوب الغربي من شاطئ بحر الخزر كان سهلها للجبل وجبالها للديلم وقـصبتها روزبار. وأهلها لم يكونوا من العنصر الفارسي بل من عنـصر متميـز يُطلق عليه اسم الديالمة أو الجيل. وقد فتح المسلمون الديلم زمن عمر بـن الخطاب وبقي الديالمة على وثنيتهم. وكانت تجاورهم طبرسـتان وبـين الشعبين سلم وموادعة.

في زمن حكم الطاهريين أظهر أهل طبرستان العصيان لأهـل طـاهر فاستدعوا الحسن بن زيد وكان بالري ودانوا بطاعته. وكان وجود الشيعة الزيدية في طبرستان سببا لشيوع الدعوة بين أهل الديلم. وقد دخل دعـاة الشيعة إلى **الديلم** ومنهم الحسن بن علي يدعونهم إلى الإسـلام ويـدفعون عنهم عدوهم ويقتصرون منهم على العشر فأسلم منهم خلق كثير واجتمعوا تحت لوائه وبنى في بلادهم المساجد. وحدث أن تغلب على طبرستان أمير ساماني أساء السيرة مع الجوار فهيج الحسن بن علي الملقب بـالأطروش عليه أهل الديلم فالتقوا أمير طبرستان وهزموه وكان من قواده الكبار **ليلي بن النعمان وماكان بن كالي** الديلميان، فاستوليا على طبرستان وجرجان باسم الحسن بن علي. وممن عُرف اسمه في هذه الوقائع الداعي العلـوي **الحسن بن القاسم.**

وفي سنة309هجري قتل ليلي بن النعمان الذي سار إلى نيسابور بأمر الحسن بن القاسم يريد الاستيلاء عليها من السامانية فهُزم ولقي حتفه وتقدم السامانية إلى جرجان فانهزم عنها حاكمها اليزيدي فـاجتمع الـديلم إلـى باستراباذ ابن ماكان بن كالي فقدموه وأمّروه عليهم فأعاد جرجـان مـن الجنود السامانية وأقام بها.

واستمر الصراع بين الديلم والسامانية وظهر قائد ديلمي اسمه **أسـفار بن شيرويه** كان سيء الخلق والعشرة وهو ثالث قواد الديلم فاستولى على طبرستان، ولما تصدى له الحسن بن قاسم ومعه ما كان بن كـالي هـزم جيشه وقتل الحسن وصفت لأسفار طبرستان والري وجرجـان وقـزوين وزنجان وأبهر والكرج ثم استولى على **قلعة الموت** (أصبحت فيما بعـد حصن الشيعة الإسماعيليين المتطرفين) وهي قلعة على جبل شاهق فـي حدود الديلم.

عظمت جيوش أسفار وجلّ قدره فعصى على أمير خراسان الـسامانى وأراد أن يجعل على رأسه تاجا وينصب بالري سـرير ذهـب للـسلطنة ويحارب خليفة بغداد المقتدر بالله فسيّر المقتدر إليه جيشا فحاربه أسـفار وانتصر عليه وبينما هو في ذروة عزّه قام عليه أكبـر قـواده **مـرداديج** وحاربه وقتله عام 316هجري.

ولما استقرت بمرداديج الحال قدم عليه ثلاثة أخوة من أعيـان الـديلم كانوا من قواد ماكان بن كالي وهم **عليّ والحسن وأحمـد** أولاد بويـه. وهؤلاء هم الذين أسسوا **الأسرة البويهية** التي امتلكت بلاد العـراق ومـا يحيط بها من البلاد الإسلامية.

لما ورد أبناء بويه على مرداديج خلع عليهم وولى **عليّا بـلاد الكـرج** وكتب لهم بذلك العهود فساروا إلى الري وبها أخو مرداديج. ولقـد نـدم مرداديج على تولية هؤلاء القواد فأرسل إلى أخيه وشـمكير فـي الـري ليمنعهم من الخروج ويسترد التوقيعات التي كانت معهم. ولكن عليّا وصل

إلى الكرج وأحسن إلى الناس وافتتح قلاعا كانت للخرميّة وظفـر منهـا بذخائر استمال بها الرجال بالصلات والهبات وسار إلى أصبهان فاستولى عليها. فبلغ ذلك الخليفة فاستعظمه ولكن رأى أن يحتال عليه، فراسل عليّا يعاتبه ويستميله ويطلب منه أن يظهر طاعته حتى يمده بالعساكر الكثيـرة ليفتح بها البلاد ولا يكلفه سوى الخطبة له في البلاد التي يستولي عليهـا، وجهز عقب الرسالة جيشا كثيفا ليفاجئ عليّا وهو مطمئن، فعلم عليّ بذلك فرحل عن أصبهان وتوجه إلى أرجان سنة 319هجري واسـتخرج منهـا أموالا قوي بها.

كانت القوى الكبرى المتصارعة في بلاد العجم ثلاثا: قوة عليّ ين بويه بفارس وقوة شمكير ابن شيرويه بالري وقوة السامانية بخراسان وما وراء النهر. وبقي الصراع بينهم حتى تم للقوة الحية النامية مـن بنـي بويـه الاستيلاء على البلاد بعد خطوب وحروب طويلة. وبعد أن تمكن لعليّ أمر فارس خطر له أن يمد سلطانه إلى الأهواز والعراق لما علمه من ضـعف خليفة بغداد، فسيّر أخاه الأصغر **أحمد إلى الأهواز** فاستولى عليهـا. ثـم كاتبه قواد بغداد يطلبون إليه المسير نحوهم للاستيلاء على بغداد فوصـلها سنة 334هجري والخليفة بها هو المستكفي بالله، فقابله واحتفى به. ولقب أحمد، صاحب العراق، **معز الدولة**، ولقب **الحسن** صاحب الري والجبـل **ركن الدولة**، ولقب **علي** صاحب فارس **عماد الدولة**، وضـربت ألقـابهم وكناهم على النقود

وهذا اليوم هو تاريخ الدور الثاني للخلافة العباسية وهو تاريخ سـقوط السلطان الحقيقي من أيديهم وصيرورة الخليفة منهم رئيسا دينيا لا أمر له ولا نهي ولا وزير. وإنما له كاتب يدبر شؤونه لا غير وصارت الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه من شاء.

كان يخطر ببال معز الدولة أن يُزيل اسم الخلافة عن بني العباس ويوليها علويّا لأن القوم كانوا شيعة زيدية، فالتعاليم الإسلامية وصلت إليهم على يد

الحسن بن زيد ثم على يد الحسن الأطـروش وكلاهمـا زيـدي، فكـانوا يعتقدون أن بني العباس قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقيها. ولكن بعض خواصه أشار عليه ألا يفعل وقال له إنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لفعلوا، فأعرض عما كان قد عزم عليه وأبقى اسـم الخلافـة لبني العباس وانفرد هو بالسلطان[38]

وضع العالم الإسلامي زمن بني بويه

في الوقت الذي استلم الحكم فيه بنو بويه في فـارس والعـراق كـان السلطان ببلاد الأندلس **لبني أميّة** والقائم بالأمر منهم عبد الرحمن الناصر وقد تلقّب بأمير المؤمنين.

وببلاد إفريقية **للعبيديين** الذين تأسست دولتهم على أنقـاض الأغالبـة والأدارسة والقائم منهم إسماعيل المنصور وهو ثاني خلفائهم بعد عبيد الله المهدي (مؤسس الدولة الفاطمية) وكان يلقب بأمير المؤمنين.

وبمصر والشام **للإخشيديين** الذين يخطبون باسم الخليفة العباسي.

وبحلب والثغور لسيف الدولة الحمداني الشيباني ويخطب باسم الخليفـة العباسي.

وبالجزيرة الفراتية لناصر الدولة **الحمداني الشيباني** ويخطـب باسـم الخليفة العباسي.

وبالعراق **للديلم** والسلطان منهم معز الدولة أحمد بن بويـه ويخطـب للخليفة العباسي.

وبعمان والبحرين واليمامة وبادية البصرة **للقرامطة** ويخطبـون باسـم المهدي.

وبفارس والأهواز **لعليّ بن بويه** أكبر بني بويه الملقـب بعمـاد الدولـة ويخطب للخليفة العباسي.

وبالجبل والري **لحسن بن بويه** الملقب ركن الدولة ويخطـب للخليفـة العباسي.

ومما يستحق النظر أن العنصر العربي لم يبق له شيء من الملك إلا ما كان لناصر الدولة ولأخيه سيف الدولة. أما الخليفة العباسي فلم يعـد لـه جذور وكان السلطان والنفوذ للقواد العسكريين من أتراك وديلم.

الصراع بين الشيعة الديلميين والشيعة الحمدانيين

لم يلبث المستكفي في الخلافة بعد أن ولى أحمد بن بويه أمر العـراق إلا أربعين يوما، إذ اتهمه بالتدبير عليه فخلعه وسمل عينيـه وألقـاه فـي السجن.

كان سلطان معز الدولة مبدأ خرابه، فما إن استقر أمره حتى شغب عليه الجند فضمن لهم أرزاقهم، وأخذ الأموال من غير وجوهها وأقطع قـواده وأصحابه القرى جميعها التي للسلطان وأصحاب الأملاك بعد أن صودرت أموالهم. وأكثر أيضا من إعطاء أمراء الجيش الأتـراك وزاد لهـم فـي الإقطاع فحسدهم الديلم، وتولد من ذلك النفور بين هاتين الفئتـين اللتـين تنتميان إلى مذهبين مختلفين. ولم تمض سنة على بغداد حتى اشتد الغـلاء بها وأكل الناس الميتة والسنانير والكلاب، وأكل الناس خروب الشوك الذي يسلقون حبه ويأكلونه فلحق بالناس أمراض وأورام وكثر فيهم الموت.

كان نظام الإقطاع المستجد أول فساد في العراق، وكان السبب الثـاني اختلاف عنصري بين الجنود، فأصبح النزاع بينهم يؤدي إلـى الفوضـى وانعدام الأمن. بل كادت هذه المنازعات تؤدي إلى خلع معز الدولـة بيـد الديلم أنفسهم فقد ثاروا ضده بقيادة روزبهان بن ونداد خورشيد فانتـصر عليه معز الدولة بقوت الأتراك. ولم يترك الناس على مذهبهم بـل أثـار الحزازات الدينية. وأمر أن يُكتب على مساجد بغداد سنة 351هجري مـا صورته:" لعن الله معاوية بن أبي سفيان ولعن من غصب فاطمة رضـي

الله عنها فدكا ومن منع من أن يُدفن الحسن عند قبر جده عليه السلام ومن نفى أبا ذر الغفاري ومن أخرج العباس من الشورى.

وفي سنة352هجري أمر معز الدولة عاشر المحرم أن يُغلقوا دكاكينهم ويبطلوا الأسواق والبيع والشراء، وأن تخرج النساء منـشورات الـشعور مسودات الوجوه قد شققن ثيابهم يدرن في البلد بالنوائح ويلطمن وجوههن على الحسين بن عليّ رضي الله عنهما. ففعل الناس ذلك منهم عن رغبـة ومنهم خوفا من السلطان.

وفي الثامن عشر من ذي الحجة أمر معز الدولة بإظهار الزينة وأُشـعلت النيران وفتحت الأسواق بالليل احتفالا **بعيد الغدير** وهو الموضـع الـذي يروى أن رسول الله قال فيه عن علي:" من كنت مولاه فعليّ مولاه اللهـم وال من والاه وعاد من عاداه." وضربت الدبادب والبوقات وكـان يومـا مشهودا.

وبهذا الانقسام المذهبي صارت بغداد وبـلاد فـارس والـري ميـدانا للاضطرابات المتكررة بين العامّة والسلطان، وأُثيرت عداوات كانت قديما ذات طابع سياسي فأصبحت ذات طابع ديني، تحركها أصـابع الـسلطان وكان لها في الأحوال العامة أسوأ التأثير[39]

دام حكم بني بويه من 334-447هجري وظلوا يختارون الخلفاء مـن بني العباس وارتبط حكمهم بخمسة من الخلفاء العباسيين.

وفي عهدهم عمت الفوضى وسـوء الإدارة وسـاءت أحـوال النـاس الاقتصادية. ونجدهم في **حرب دائمة مع بني حمدان** في الموصل وهم من الشيعة العرب يتنازعان السلطان وكل يريد الإغارة على ما بيد الآخر.

ففي السنة الأولى من حكم معز الدولة استولى ناصر الدولة الحمـداني على الجانب الشرقي من بغداد إلا أن معز الدولة هزمه فجاء الديلم ونهبوا أموال الناس، وقُدّر ما غنموه من أموال الناس المعروفين عشرة آلاف ألف

دينار وقتلوا كثيرا ممن اتهموه. وصالح ناصر الدولة المعز على مال يؤدّيه فقبل.

وفي سنة 337هجري سار معز الدولة إلى الموصل يريد احتلالها فسار عنها ناصر الدولة إلى نصيبين، ودخلها المعز وظلم أهلها وعسفهم وأخذ أموال الرعايا فكرهه الناس. ثم صالح ناصر الدولة على أن يدفع كل سنة ثمانية ألف ألف درهم ويخطب في بلاده لأولاد بويه الثلاثة.

وبعد فتنة روزبهان الديلمي سيّر ناصر الدولة أحد أولاده في جيش إلى بغداد فانتصر معز الدولة الذي توجه إلى الموصل للانتقام من ناصر الدولة فراسله الأخير على مال ضمنه فقبل ولكنّه أي ناصر الدولة لم يف بما ضمن فسار لإبيه معز الدولة سنة 347هجري واستولى على الموصل ثم لحق بناصر الدولة إلى نصيبين فاستولى عليها وسار الأخير إلى أخيه سيف الدولة بحلب فأكرمه وسعى بالصلح بينه وبين معز الدولة فأبى الأخير. وبناء على إلحاح سيف الدولة ضمن البلاد منه بألفي درهم وتسعمائة ألف درهم سنة 348هجري.

إن الحروب لم تهدأ بين هذين الطرفين واشتغلا بها عن كل مصلحة حتى طمع الروم ببلاد المسلمين. وكان عهد معز الدولة ببغداد شرا كلّه من جراء الاختلافات والحروب الداخلية والخراب وضعف هيبة السلطان. وأدركته المنيّة سنة 356هجري فكانت البلاد في عهد ابنه بختيار أسوأ حالا منها في عهد أبيه فلقد اشتغل باللهو واللعب وعشرة النساء والمغنين، وأساء الى قواده الأتراك. وحاول اغتيال **سبكتكين** أكبر القواد الأتراك، ونفى كبار الديلم ثم تراجع وأجابهم إلى ما طلبوا من زيادات للجند.

كانت الثغور الإسلامية مهددة بهجمات الروم الذين أذاقوها الوبال، فسار سيف الدولة من عاصمته حلب لحمايتها ودفع العدو عنها وكان ذلك سنة 337هجري فاقتتلوا فكانت عليه وأخذ الروم مرعش وأوقعوا بأهل طرسوس.

وفي السنة التي تلت دخل غازيا فكان له النصر، ولكنه توغّل في بلاد الروم فسدوا عليه المضائق فهلك من كان معه من الجنـد أسـرا وقـتلا، واسترد الروم الغنائم والسبي وغنموا أموال المسلمين ونجا سيف الدولـة في عدد يسير.

وفي سنة343هجري غزا سيف الدولة البلاد الرومية وكان له بها نصر عظيم وقتل في تلك الواقعة **قسطنطين ابن الدمستق** فسار إليه أبوه ومعـه جند من الروم والروس والبلغار وقصد الثغور فسار إليه **سـيف الدولـة** واشتد القتال فكان النصر للمسلمين وانهزم الروم وقُتل منهم خلق عظـيم، وأُسر صهر الدمستق وابن بنته وكثير من بطارقته.

وفي سنة 345هجري سار سيف الدولة إلى بلاد الـروم وفـتح عـدة حصون ثم عاد إلى حلب، فلما سمع الروم بذلك جمعوا جموعهم وسـاروا إلى ميافارقين فأحرقوا سوادها ونهبوه وسبوا أهله ونهبوا أموالهم، وساروا في البحر إلى طرسوس فأوقعوا بأهلها وقتلوا منهم 1800 رجل وأحرقوا القرى التي حولها وغزوا الرها عام 348هجري ففعلـوا بهـا الأفاعيـل وعادوا سالمين لا يقاومهم أحد.

وفي سنة 349هجري سار سيف الدولة إلى بلاد الـروم وفـتح عـدة حصون وفي طريق العودة ظهر الروم عليه واستردوا ما كان معـه مـن الغنائم وأخذوا أثقاله ووضعوا السيف في أصحابه ونجا هو ومعـه 300 رجل.

وجاء في جيبون بأن 200 ألف مسلم قُتلوا عند نهر ساروس أو أخذوا عبيدا[40]

وفي سنة 350هجري سار جيش عظيم من أنطاكية إلـى طرسـوس ومعهم صاحب أنطاكية فخرج عليهم كمين للروم فأخذ من كان فيـه مـن المسلمين، وقتل كثير منهم وأُفلت صاحب أنطاكية.

وفي سنة 351هجري غزا الدمستق عين زربة وهي من أحصن مـدن الثغور فاستولى عليها ونكّل بأهلها ولم يرحم شيخا ولا صبيا وفتح حولها 54 حصنا للمسلمين بعضها بالسيف وبعضها بالأمان.

وفي هذه السنة استولى ملك الروم على **مدينة حلب** حاضرة ملك سيف الدولة فخرج عنها منهزما بعد أن قتل أكثر أهل بيتـه وظفـر الدمـستق بأموال سيف الدولة وكنوزه وأسلحته وخرّب داره التي كانت بظاهر حلب وسبى من حلب وحدها بضعة عشر ألف صبي وصبية وقتل أكثـر مـن ذلك، ثم أمر الدمستق بإحراق المساجد.

وفي سنة 353هجري حاصر الروم طرسوس وقـاوم الطرسوسـيون مقاومة يُحمدون عليها. وخلال ثلاثة أشهر من الحصار لم يأتهم نجدة من قبل سيف الدولة ولا غيره حتى تفشّى وباء في جنـد الـروم فاضـطرّوا للرحيل.

وفي سنة 354هجري ألح الروم بالحرب على المصيصة ففتحوها عنوة ووضعوا السيف في أهلها فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، ثم حمل نقفور ملـك الروم مائتي ألف إنسان إلى بلاد الروم، ثم سار إلى طرسوس فطلب أهلها الأمان فسمح لهم أن يحملوا من سلاحهم وأموالهم ما يطيقـون ويتركـوا الباقي ففعلوا وتشتتوا برا وبحرا حتى بلغوا أنطاكية. وجعل الملك المسجد الجامع إسطبلا لدوابه. وعمّر طرسوس وحصنها وجلب الميرة إليها حتى رخصت الأسعار. وتراجع إليها كثير من أهلها ودخلوا في طاعة الملـك وتنصّر بعضهم.

وفي سنة 358هجري دخل ملك الروم الشام فلم يمنعه احد وسار إلـى طرابلس فأحرقها ثم قصد حمص وأهلها قد انتقلوا منها فاحرقها ورجع إلى بلدان الساحل فأتي عليها نهبا وتخريبا. إلا أن بعض العرب كانوا يغيرون على أطراف الروم وأتاه جماعة منهم وتنصروا.

وفي سنة 359هجري دخل ملك الروم مدينة أنطاكية وأخذوا منها سبيا يزيد على عشرين ألفا كلهم شباب، ثم غزا حلب وبها غلام سيف الدولـة **قرعويه** فصالحهم على مال يؤديه لهم وأعطاهم رهائن على ذلك.

وفي سنة 361هجري أغار ملك الروم على الرها ونواحيها وساروا في الجزيرة حتى بلغوا نصيبين فنموا وسبوا وأحرقوا وخربوا الـبلاد، ولـم يقاومه أبو تغلب بن حمدان ولا سعى إلى دفعه ولكنه حمل إليه مالا كفّه به عن نفسه.

استرد الروم في خلافة المطيع جميع الثغور الإسلامية الكبرى وهـابهم المسلمون من أهل الجزيرة والشام، وبنو بويه وبنو حمدان يغزو بعـضهم بعضا وهم عن عدوهم منشغلون.

وفي عهد المطيع مات كافور الإخشيدي في مصر عـام 356هجريـة واستولى **جوهر الصقلي** عليها عام 361هجري وانتقل الأمر فيهـا إلـى الخلفاء الفاطميين.

وفي العام نفسه سار اللاجئون من البلدان التي استولى عليها الروم إلى بغداد مستنصرين وقاموا في الجوامع واستنفروا المسلمين وذكروا ما فعله الروم من قتل ونهب وأسر وسبي فاستعظم الناس ذلك. واجتمع أهل بغداد وقصدوا دار الخليفة فمُنعوا. وكان بختيار يتصيّد بنواحي الكوفـة فخـرج إليه وجوه بغداد مستغيثين منكرين عليه ترك جهاد الروم فوعدهم التجهـز للغزو وأرسل إلى سبكتكين أن يستنفر العامة فاجتمع عدد لا يحصى، ثـم أنفذ بختيار إلى المطيع لله يطلب منه مالا فقال المطيع بأن الغزو والنفقـة على مصالح المسلمين تلزمه إذا كانت الدنيا في يده وتجبى إليه الأمـوال، وأما في مثل حاله وليس له من الأمر إلا الخطبة فهي تُلزم من الأمر بيده. ومع ذلك دفع المطيع 400 ألف درهم بعد أن باع ما يملك فقبض بختيار المال وصرفه في مصالحه وبطل حديث الغزو[41]

ومما تقدم نجد أن بني بويه كانوا يحكمون بدافع شهوة الحكم والمنـافع التي يدرها عليهم ولا يحسبون لمصالح العـالم الإسـلامي أي حـساب. يحملون لواء التشيع للتمايز ولا ينصبون في الخلافة أحدا مـن آل علـيّ. والخلفاء العباسيون في عهدهم كما في عهد الأمراء الأتراك الذين سبقوهم مضطهدون لا حول لهم ولا قوة من جيش أو مـال أو نفـوذ، والعـرب مُبعدون عن مراكز القـوة فـي الإدارة والجـيش. والأمـور يـصرّفها العسكريون من أتراك وديلم، وحكمهم كان حافلا بإثارة الفتن الطائفية بين عامة الناس. وتحول كثير من الناس في العراق إلى المذهب الشيعي إذ أن مأساة أبناء علي كانت تستدر دائما عطف عامة الناس سواء أكانوا علـى مذهب السنّة أم الشيعة. وفي عهدهم نشط الدعاة العلويون وكثر أنصارهم وخصوصا في سوريا. وكانت السلمية مركزا للدعوة. فقد اسـتولى جنـد المعتز العلوي على قسم من سوريا عام 358هجري وبعد عـامين تملـك القرامطة دمشق ثم رحلوا إلى مصر لفتحها ولكنهم لم ينجحوا. وتمركـز شيعة الجزيرة العربية في اليمن وشيعة العراق في الإحساء وشيعة الفرس في الديلم وفي مراكز أخرى حصينة في شمال شـرقي إيـران. وكانـت **الجبال السورية** محطة للهجرات المتتالية من فلـول الـشيعة. القرامطـة واللاجئون من الثغور الإسلامية التي احتلها الروم وفلول الجيش الـديلمي بعد سقوط بني بويه.

كان الجو في العالم الإسلامي كله متهيئا لإنزال ضربة قاضية بالخلافة العباسية لصالح الحكم الشيعي. أما العدو الخارجي الذي كان يترصد العالم الإسلامي الذي أنهكته الفرقة والاقتتال على السلطة تحت لواء طائفي فلـم يستعد له أحد ولم يتصدّ له أحد. وقد سقطت دولة بني حمـدان الـشيعية العربية ولم يحرك أحد ساكنا. وممن تجد دولة بني حمدان ناصرا؟ أمـن خلافة سنّية عاجزة عن حماية حدودها أو أغراب يحكمون سنّة وشيعة؟

إن بني بويه في سعيهم لإبعاد العنصر العربي عن مراكز القـوة فـي الجيش كانوا مضطرين كما فعل من سبقهم في الاعتماد على جيش متنافر قوميا ومذهبيا. وكان لا بد أن يتفجر هذا الوضع، وتشتد المنافسة فالقتـال بين الترك وبين الديلم، وأن يستنزف هذا الجيش المرتزق اقتصاد الـبلاد ويودي بها إلى سلسلة من المجاعات في فتن داخلية وحروب حتـى بـين أتباع المذهب الواحد، فأضعف هذا أمرهم وبدد دولتهم التي لم تتماسك كما فعلت الدولة الفاطمية وانتهى عهدهم بعد فتنة وقعت بين الشيعة والسنّة في بغداد عام 447هجري واستتب الأمر للأتراك السلاجقة.

* * *

المراجع

[1]- تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية: مصطفى عبد الرازق ص 282- 295

[2]- مقالات الإسلاميين واختلافات المصلين: الإمام أبو موسى الأشعري، الجزء الأول ص 2

[3]- المصدر السابق الجزء الثاني ص 3

[4]- المصدر السابق

[5]- محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية: محمد الخضري طبعة 1930 مطبعة دار إحياء الكتب العربية ص 13-14

[6]- الخضري ص 15

[7]- المصدر السابق ص 16

[8]- المصدر السابق ص 18

[9]-

Dwight M. Donaldson: The Shiite Religion 1934 in E.B. 1965 Shiism V20 P 515

[10]-

Persian History: Safavids (1501- 1736) E. B. V17 P577

[11]-

Gibbon II Ch 50th P247- 249 (G. B.)

[12]- محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية: محمد الخضري ص 82- 95

[13]- المصدر السابق ص 132- 134

[14]- المصدر السابق 246- 249

[15]- محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ص 258

[16]- عصر المأمون الجزء الأول: الدكتور أحمد رفاعي ص 215- 249

[17]- الخضري ص 101

[18]- عصر المأمون الجزء الأول ص 251

[19]- من محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ص 352- 353

[20]- المصدر السابق من374- 386

[21]- المصدر السابق ص 407

[22]- المصدر السابق ص 409

[23]- الخضري مصدر سابق ص 409- 411

[24]- المسيح في مفهوم معاصر: عصام الدين حفني ناصف ص 28- 29

[25]- المصدر السابق المسيح في مفهوم معاصر ص 26- 27

[26]- الخطط ج 4 ص184 جاءت في تاريخ الفلسفة الإسلامية لمصطفى عبد الرازق ص 282- 295

[27]- تاريخ الأمم الإسلامية ص 120 مصدر سابق

[28]-

Gibbon II P 307 Ch 52 (G. B.)

[29]- المصدر السابق ص 308

[30]- الخضري مصدر سابق 413- 417

[31]-

Gibbon II P 306- 307 Ch 52

[32]- تاريخ الأمم الإسلامية مصدر سابق ص 412- 413

[33]-

Gibbon II P 307 Ch 52

[34]- عن المقريزي: تاريخ السلاطنة المماليك

W. Muir: The Mamluke or Slave Dynasty (1896)

[35]- محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ص 322- 386

[36]-

E.B. Egypt V. 8 P 59
Gibbon II Ps. 250-1, 272, 295- 6, 298, 302, 308- 9. 379- 80. 399- 400, 410- 412

[37]- النجوم الزاهرة: ج 4 ص 142

[38]- محاضرات الأمم الإسلامية ص 506- 517

[39]- محاضرات تاريخ الدول الإسلامية ص 506- 570

[40]-

Gibbon II Ch 52 P. 309

[41]- عن أبي الفداء مجلد 2 ص 361